عندما تقرع الطبول

رواية

أمنة برواضي

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : عندما تقرع الطبول

اسم المؤلف : أمنة برواضي

الجنسية : المغرب

التصنيف الأدبي : رواية

الترقيم الدولي : ٧ – ٧٥ - ٦٧٠٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨

رقم الإيداع : ٢١٧٥٥ / ٢٠١٩

تدقيق لغوي : نجاح السرطاوي

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

الإهداءُ

إلى توأم روحي وسندي

إلى أختي الغالية فاطمة بارك الله في عمرها.

آمنة برواضي

****

منذ مدة توقف نزار عن فتح المحل الذي يعيل منه عائلته، بعدما سحب من البنوك كل ما ادخره من تجارته تحسّبًا للأسوأ، لأ نه كان ينظر أبعد من اللحظة، كما أن كل توقعاته كانت تقع تباعًا، مما زاد هاجس الخوف لديه من الآتي. وهذا ما جعله ينشغل طول الوقت مع باقي إخوته بالحديث عن تطورات الوضع الأمني والسياسي في المنطقة في محاولة منه لإقناعهم بحقيقة الوضع، وما ستؤول إليه البلاد لاحقًا.

كان عارفًا وخبيرًا بشؤون السياسة، ويعلم جيدًا الهاوية التي تنزلق إليها البلاد، وكان لا يتوارى في إخبار كل من يثق بهم بتوقعاته، وفي كل مرة يقترح عليهم مغادرة البلاد قبل أن تندلع الشرارة الأولى، لكن ارتباط البعض بتجارته، وتشبثهم بممتلكاتهم كان يحول دون الموافقة، وكانوا يجيبون غير مكترثين أو ربما لإبعاد الخوف عنهم:

-لن يحدث شيء مما تفكر به، في كل مرة نتوقع الشرارة سوف تندلع ولن نجد سبيلًا لإخمادها، وتبقى مجرد كلام وتخمينات لا أقل ولا أكثر، مجرد أفكار يزرعها سيا سيون يتاجرون في السلاح، وفي باقي المواد كي تجد سلعتهم رواجًا

في السوق السوداء التي تدر عليهم الربح الوفير، وبعد فترة تعود الأوضاع إلى الاستقرار، ويبقى الأمر مجرد زوبعة حملتها الريح معها وهدأت بهدوئها، وعاد كل شيء إلى سابق العهد والحياة إلى مجراها الطبيعي. لكن نزار لم ييأس؛ تجده يعود بين الفينة والأخرى وكلما جد جديد ليؤكد لهم؛ أن هذه المرة الأمر مختلف. عندما لم يجد من يصغي لتوقعاته، ولا من يشجعه على الرحيل بدأت الأسئلة تلح عليه وتدفعه للصبر:

-كيف يكون الخائف الوحيد بينهم؟

وهل من الشجاعة ترك الوطن، والفرار من أجل العيش في بلد آخر؟

وماذا لو اشتعلت الحرب في البلد الذي سيهاجر إليه بمحض إرادته وباختياره؟

كان نزار يتوفر على مبلغ لا بأس به من المال يضمن له السفر أوّلًا ، وإقامة مشروع يدر عليه الربح في البلد الذي سيختاره، وبعد ذلك يلتحق به باقي أفراد عائلته، وأية دولة سوف ترحب به خاصة وأنه علم أنه بعد الأزمة الاقتصادية التي ضربت الكثير من دول العالم، وأثرت في

اقتصاد العديد منها، مما جعل بعض الدول تسلك سياسة خاصـــة تتوخى منها ملء خزينتها من جديد لتجاوز الأزمة، وبدأت ترحب بأي فرد يدخـــل أراضيها من أجل الاستثمار، وبمجرد ما يشتري عقارًا بمبلغ معين يصبح صـــاحب أوراق إقامة كما هو الحال مع إســـبانية. كان التفكير في الهجرة يشـــغل باله، لكنه لم يشـــأ أن يترك أهله وعشـــيرته، والأهم من ذلك خوفه من أن ينعتوه بأشياء ليست من شيمه وكونه هرب وترك بلده لعصابة تنهش فيها، وإذا هرب كل واحد وبحث عن خلاصـــه؛ أين هي روح الجماعة التي تربى عليها؟

أين هي التضحية من أجل الآخر؟

أين هو الإيثار؟

كل هذه الأشياء وغيرها كانت بمثابة مطارق تدق بقوة قمة رأســـه كلما فكر في ترك الأرض، والبحث عن أرض أخرى قبـــل أن تـــلـــفـــظـــه أرضـــــه، وتـــلـــفـــظ كل أبـــنـــائـــهـــا. تخلى عن فكرة الرحيـــل لكنه ظل باستمرار يُذَكِّرُ زوجته بالانتباه إلى الوضـــع، وإذا ما وجدت الأمور قد تطورت أكثر، وانحرفت نحو الأسوأ عليها أن لا تتردد في الرحيل إلى

أي مكان على وجـه الأرض، ولا تتردد في ترك كل شيء وراءها، المهم هو حياتها وحياة الأبناء.

لم يكن يريد أن يفقدهم، ولم يكن يريدهم أن يعيشـوا بشاعة الحرب العمياء التي تأتي على الأخضـر واليابس، على الـكـبـير والصـــغـير، والأبـريـاء قـبـل غـيرهـم. يعود ليتساءل:

-كيف؟

وهل هناك من هم ليسوا بأبرياء؟

أليست الحرب لعبة الكبار؟

وكل الذين يذهبون ضـحيتها هم مجرد بيادق اسـتخدمهم الكبار لإنجاح لعبتهم، ومدِّها بشحنة من الوقود لتشتعل وتشـتعل ويصـل لهيبها إلى كل الأبرياء، وينتعش بذلك اقتصاد الكبار، وتمتلئ خـزائنهم بما باعوه من سلاح وأدوية ومواد غذائية... واسـتخدموا بعدها بيادق من نوع آخر تحت ذريعة حمايـة الطفولة، والإنسانية، وأقاموا لهم المخيمات على الحدود مع باقي البلدان بعدما أخرجـوهم من منازلهم وشردوهم في باقي البلدان، و بدأت المعونات

تصـــل تباعًا لتنتعش منها تلك الطبقة التي تســـتفيد من تشريدهم.

ألا يقال مصـــائب قوم عند قوم فوائد، هذا بالضـــبط ما يحصـل أيام الحروب، مصـائب الأبرياء فوائد الكبار الذين يتغذون على دمائهم، ولا يحسـون بأي قدر ولو ضـئيل من الإذسانية التي يتسترون تحت غطائها من أفعالهم الدنيئة. مرت الأيام مســـرعة، وبدأت نار الحرب تأكل في الهشيم، وتتسـع رقعتها بســـــرعة مهولة، وكل توقعات نزار بدت وكأنها كتاب مســـطر من قبل، وقرأ على صـــفحاته كل ما يجري الآن.

اشـتعلت نار الحرب والناس لا يزالون تحت وطأة الدهشـة من الســـــــرعة التي انطلقت بها، لم يفهموا بعد أنه قبل انطلاقها كانت تشـتعل رويدًا، رويدًا في عمق كل شيء من غير أن ينتبه إليها أحد، إلى أن أصـــبحوا وجهًا لوجه مع واقع بشع، وكأن القوم ناموا واستيقظوا وكل شيء قد لبس ثوب الحزن والسواد؛ امتلأت السماء فوق رؤوسهم دخانًا أســـود، بدأت الأمـــــواج الإذاعية والقنوات تعد عدد الطائرات، بدأ العد في الشـــهداء الأبرياء الذين ينعتون

بالقتلى، حتى الصغار منهم يخاف من نعتهم بالشهداء، ما ذنبهم وقد قصفتهم طائرة صماء يقودها قلب أفرغ من الرحمة ويطبق ما أمر بتنفيذه، وأرسلت عليهم العناقيد لتدمر منازلهم ويقضوا تحت الأنقاض، والقنوات تنشط في نقل الأحداث وبَثِّ صور لإخراج أشلاء الجثث الصغيرة منها والكبيرة من تحت الأنقاض، لم تعد تدرك أكانت هذه الذراع لتلك الجثة أم لأخرى؟

ولا يقيمون اعتبارًا لتلك المشاهد التي تدمر ما تبقى من النفوس.

كل الصحافيين يتسابقون لتغطية الأحداث، كأنهم في سباق لإحراز لواء السبق الصحفي، ومن هو الصحفي الذي سيبرع في تغطية الحدث؟

ومن يكون أسلوبه أكثر تأثيرا؟ لأنه بقدر ما يكون الخبر المنقول حديثًا، والتغطية جيدة، والصورة أكثر بشاعة، بقدر ما تناقل الناس في كافة أقطار المعمورة جودة القناة التي نقلت الخبر وبثته على الهواء مباشرة، لا أحد يبحث عن المصداقية، لا أحد يبحث عن الحلول، الجميع يتابع، الجميع يتحسر، والجميع بعد العرض، يُغْلِقُ القناة

في انتظار نشرة أخرى كي يجد مادة خصبة يتناولها بالدراسة والتحليل مع باقي أصدقائه في العمل أو على كراسي المقاهي التي أصبحت تغصُّ بالناس من أجل متابعة مستجدات الأحداث، والمستفيد من كل هذا طبعًا القنوات، هي التي تدر الربح إلى جانب تُجّارِ الأسلحة، وما أدرانا قد يكون لهم نصيب في تمويلِ هذه القنوات، أو نصيب من مردودية القناة لكونها تترك لهم حق تغطية الأحداث، كل الاحتمالات واردة، في حالة الحرب تنعدم الإنسانية وينعدم الإحساس بالآخر، حتى الكلام يكون بتحفظ لا أحد يضيف شيئًا عما تناقلته وسائل الإعلام لخوفه من نعته بالانتساب لجهة من الجهات، والجميع في غنى عن المشاكل.

****

شاء القدر أن يجمعنا رصيف واحد، يا لسخرية الأقدار! في مكان واحد؛ إفريقي بلونه الداكن، وعربي من شمال إفريقيا، وعربي سوري، اختلفت لهجاتنا لكن البؤس والحاجة وحدانا، أستعطف المارة بلهجتي السورية، والإفريقي لم يدخر جهدًا لتعلم العربية، وكان للونه الغامق دور في الشفقة عليه، كما كانت لهجتي سببًا تفي بالغرض وأكثر؛ فكنت أحظى بنصيب وافرٍ من الشفقة والمساعدة منهما، لكن صديقنا سالم يعرف الوجوه جيدًا، وله فراسة قوية في معرفة من هم أكثر شفقة من غيرهم. تعلمنا معًا كيف نمد اليد إلى الغير، كيف نستعطف المارة، كيف نُريق ماء وجوهنا، كيف ندوسُ على كرامتنا، بل هي الظروف التي علمتنا، وهي التي جمعتنا رغم كل الاختلافات، أنا لم أكن يومًا فقيرًا، ولم أتصور يومًا أني سأقف على رصيف بلد آخر أتسول وأطلب المساعدة من كل عابر والدموع تملأ مقلتي، كرامتي مجروحة باستمرار، لكن كيف السبيل للعيش بكرامة بعد ما فقدناها جملة، ودفناها في أرض الوطن قبل أن يُلقى بنا خارجه؟ أجل يا أخي دفناها، وتركنا ما تبقّى منها معلقًا على مشنقة صَنَعَتْها ديكتاتوريات الشعوب التي تبحث لها عن

الخلود، ولا شـأنَ لها بأبنائها ومصـيرهم الذي رمت به إلى هوة المجهول السـحيقة لتتلقفهم في أعماقه كل المصـائب مجتمعة.

وأنتَ يا أخي أجل أخي، فأنا لا فرق لديَّ في اللَّون، وقد جاء القرآن ليمحو كل الفوارق ويجمع بين الإنسانية، ولم يجعل لِلّون أيـــة قيمة، أنت إنسان وجمعتني بك الأقدار لنبحث معًا عن اللقمة.

كبـــــرنا أنا وأنتَ وغيرنا من أطفال العالم من حالهم كحالنا، كبرنا يوم غادَرَنـــا الأمان، يـــوم غادَرْنا الديار، وغادَرْنا الأهل والوطن، نعم غادرنا قهرًا أراضـينا، كبرنا ونحن نجتاز أراضـينا بحثًا عن النجاة، وغادَرْتَ بدورك أراضـيك عبر الصـحارى تبحث عن وطن، عن مأوى، والوطن الذي تمتد جـذورك عميقًا في تربته تركته يعرف الخرابَ بعدما تَنَكَّرَ لك. وخَرَجْتُ بدوري بعدما أَثْقَلَتْ خطواتي وَيْلاتُ الحروب، والدَّمار، والخَراب الذي حَلَّ بِحَلَب بعدما لم يعد لأي شيء معنى. خَرَجْتُ أبحث عن مأوى، عن سماءٍ لا تُمْطِرُ القنابـلَ، وعن أرضٍ لا ترفضُ أبناءها بل تضـمهم وتحميهم، بعدما تحولتْ حلب إلى مســـــرح

رعبٍ يُسَـــجَّلُ التاريخ فوقها بدماءِ الأبرياء؛ تاريخ دمار حضارة من آلافِ الأعوامِ ودمارِ الإنسانِ.

****

كان عصـــام يتكلم دون توقف، وهما ينظران إليه دون أن يتدخل أحدهما بكلمة اكتفيا بالنظر إليه، كانا يعلمان مقدار ما ملأه من الحزن، وفي لحظة تركاه وانطلقا من جواره يمدان خطوات سريعة، وهما يقلبان عينيهما بين الســيارات التي تســتعد للوقوف عند الإشــارة الحمراء. بقي عصام في مكانه بعيدًا عنهما بجوار باب بيت إلى جوار الطريق ينظر إلى أصدقائه تارة، وإلى إشارة المرور أُخْرى، وقد توسـد يده اليمنى، وبدا منكمشًـا على نفسـه كشـيخ يحمل هموم الدنيا مجتمعة، بدا غير راغبٍ في العمل فضــل الراحـة، لكن بـاله كان منشــغلًا بـأشــيـاءَ أخرى. جلس يتأمل شــكليهما وهما ينظران بدورهما إلى إشــارة المرورِ متى تبدو حمراء لتتوقف الســيارات ويبدءا العمل، بينما غيرهما ينتظرها ليتمكن من عبور الشــارع إلى الـرصــيـف الآخـر، يـا لـلـمـفـارقـة الـعـجـيـبـة!. وما إن تَشْــتَغِلُ الإشــارة البرتقالية حتى يَتَأَهَّبا لجولتهما، كانا يعرفان جيدًا قانون اللعبة؛ كل واحد منهما يتجه إلى سيارة ويقف عند نافذتها يُرْسِلُ نظرات مُنْكَسِــرَة، وهو يتوسل للسائق أو الذي يركب إلى جواره إن كان إلى جواره مرافق، كانا يدرسان في لمح البصــر شخصية السائق، لقد

علمتهما التجربة منِ الشّخص الأكثر كرمًا، كانا لا يقفان عند نافـــذة سيارة الأجرة الصغيرة الحمراء إلا إذا كان الراكب إلى جوار السائق سيدة أو شابًا في مقتبل العمر. لا تُخْطِئ فراستهما الأشخاص إلا نادرًا. بقي يراقب سالمًا كيف يبيع المناديل، ويعود بعدها نشيطًا وقد علتْ ملامحه ابتسامة الفوز وأشرقت عيناه بالأمل، وكلما امتنع صاحب سيارة عن بضاعته تَغَيَّرَتْ ملامح وجهه وبدت منكســـرة، يستطيع من مكانه قراءة الخيبة والحزن اللذين ملآ نظراته التي غير البؤس بريقها من فترة طويلة، رغم احتفاظه بابتسامة صغيرة معلقة على شفتيه يستعملها للاستعطاف لأجل بيع بضاعته التي يقتات منها؛ وربما كان يستعملها للسخرية من شكله ووضعه ومن الظروف التي جعلت منه بائع مناديل في سن مبكرة، في حين يمر عليه من هم في مثل سنه يحملون محافظ متجهين إلى مدارسهم لا يكترثون بشيء، ولا هم لهم إلا تحصيل العلم والتمتع بطفولتهم وشبابهم، لم يكن يرغب في مدّ يده مباشرة ليطلب صدقة، فضل أن يبيع المناديل لتشفع له عند المارة، فهو سليم الأعضاء، ولم يكن يرضى

لنفســه أن يرتدي ثيابًا رثة ليســتعطف المارة، كان يكره الكذب رغم حاجته الملحة إلى المال.

****

عصـــام لا يزال غارقًا في بحر الغربة تقذفه أمواجها عاليًا وتتلاعب بـــه بين مد وجزر دون رحمة ولا شفقة، الغربة اكتســحته واحتلت مســاحة من قلبه وعاد به الحنين إلى أيام كان ينعم فيها بــدفء العائلة بين جنبات بيتهم وعلى أرض بلده الذي أحبه يتكلم لهجته مع أناس يقدرونه ويحبونه و يخافون عليه من نســمة الهواء البارد، تذكر وضــعه الحالي وكيف انقلب حاله من عز إلى ذل، وقال ببطء:

-ألم يكن والدي يردّدُ باستمرار قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ارحموا عزيز قوم ذل ".

أين هي الرحمة؟ هل اجتثت من قلوب الشعوب، ومن قلوب الناس كافة؟

لماذا حل بنا ما حل؟

هذا هو الذل في أبشع صوره نجمعه من الشوارع والأزقة، من أفواه أناس، ومن نظرات الاحتقار والشــفقة، الجميع يظننا عشقنا التسول، لا أحـــد يعلم كم بكينا حرقةً قبل أن نمد أيدينا.

وكم قطعت السكاكين كبرياءنا إلى أن أصبح بدوره مُلْقى إلى جوارنا يحتضر على أرصفة الشوارع. نُرْغِمُ أنفسنا على تَقَبُّلِ الشتيمة، والنظرة الدّونية من المارة الذين لا يفهمون الأسباب التي جاءت بنا إلى هنا، ونحن نضغط في كل مرة على كبريائنا كي لا ينفجر، ولكن أين هو هذا الكبرياء؟

حقا تركناه جريحا، لا، بل شيعناه إلى مثواه الأخير.

قبل أن نرحل في ليل بهيم غاب فيه القمر عن سماء حلب، وغطى دخان الحرب معالم كل شيء. تنهد عصام في أسى، وهو يمد يده ليجفف دمعة انسكبت ساخنة على خده، ظنَّ في مرات كثيرة أن دموعه ستجف لكثرة ما بكى حاله وبُعده عن غرفته وبيته و مدينته وأرضه، وحال أهله ومن خلفهم في حلب، بكى بحرقة أرضه، وطنه، ناسه، وأهله.

****

انتبه من حالة شروده ليرى صديقه في المحنة ـ سالم ـ وهو يخف الخطوة نحوه بعدما صارت إشارة الضوء خضـــراء لا بـــد أنها غنيمة جعلت عينيه تبرقان من الفرح، وشفتيه تنفرجان عن ابتسـامة فيها من براءة الطفولة الشـــــيء الكثير.

انتظر وصـــوله ليعرف بماذا ســيخبره، وماذا يحمل له من مفاجآت، وإن كان في الحقيقة لم يعد يتوقع أية مفاجأة، كل الأشـياء أصـبحت تتشـابه، وكل أحلامه غيبها الحزن والقديل الذي بقي منها أصـبح يعرض باللونين الأبيض والأسود، اختفت باقي الألوان من سماء حياته، كما اختفت من أحلامه لم تعد سـوى تلك البقعة السـوداء التي تزداد اتساعًا وحدها تحتل المساحة الكبيرة من أعماقه، شاخ به العمرُ قبل الأوان، وُئِدَتْ كل أحلامه جملةً كما وُئِدَتِ الحياة على أرضـه، وقبل أن يسـأله مدّ إليه يـــده بقطعة حلوى، وهو يقول:

ـ خذ، هذا نصيبك يا أخي لقد أعطاها لي صاحب السيارة الفخمة البيضـــاء ومعها ورقة من فئة مئة درهم، ألم تر

شكله؟ كان أنيقًا وطيبًا. تصور لم يأخذ مني علبة الورق، وقال لي وهو يناولني الورقة المالية:

-خذ يا ولدي هذه لك ولأصدقائك. لقد قال لي: "ولدي" نادرًا ما أسمع أحدهم يقول لي "ولدي" الجميع يتعامل معنا بجفاء، الجميع انتزعت الرحمة من قلوبهم، وتحولوا إلى أناس من غير مشاعر، لا يعرفون كيف يدخلون الفرحة على قلوبنا المكلومة، نحن لا نرغمهم على مساعدتنا كل ما نرغب فيه حسن المعاملة، ألسنا بشرًا مثلهم؟

كل ما في الأمر أننا في حاجة إلى هذا المال الذي يساعد على العيش، وليس ذنبنا إذا كنا ولدنا فقراء، أو دفعت بنا ظروف فوق طاقتنا إلى مَدِّ أيدينا، نحن لم نختر وضعنا بمحضِ إرادتنا، كما أنهم لم يُخَيِّرونا، ولو خَيَّرونا لما اخترنا أن نقف على الرصيف، أليس كذلك؟ يصمت قليلًا، ويعود ليقول بحسرة:

-آه يا صديقي، لو خَيَّرونا لاخترت أن أسكن بيتًا فخمًا فيه كل ما تشتهيه النفس بالإضافة إلى الخدم، غير أني سأعاملهم بمروءة وإنسانية، سوف أتقاسم معهم ما أملكه

شرط أن يخلصوا لي، ولكني لن أختار غير والِدَيَّ لأنهما مساكين، ولا ذنب لهما في الفقر الذي يرزخان تحت وطأته، الفقر يا صديقي متوارث في عائلتنا لذلك لن أختار غيرهما.

-آه لو كان الناس يقدرون وضعنا، ويقتسمون معنا نحن الفقراء ما بجوزتهم، أو على الأقل أن يكونوا أكثر كرمًا معنا، ومع غيرنا كما فعل هذا الرجل الكريم.
-أرأيت الفرق يا صاحبي؟

منهم من يزجرنا، ومنهم من يَصُدُّنا، ومنهم من يغلقُ نافذة سيارته خوفًا من أن تَمْتدّ أيدينا إلى أغراضه... وهذا الطيب أيضًا منهم، صحيح الناس معادن. وعندما لم يعلق عصام بكلمة، أضاف:
-لا بد أنه يوم مبارك ورزقه وفير، أليس كذلك يا صاحبي!؟.

لا بد أن مفعول المال، والمعاملة الحسنة يسري سريعًا في نفسه ويغمره فرحة، ويجعله يحلل، ويخمن ويتكلم دون توقف.

لم يجد عصـام بدّاً من الابتسـام في وجهه، وهو يخفي وراء ابتسامته نظراته الحزينة.

****

ويده تمتد إلى قطعة الحلوى عادت به ذاكرتـــه من جديد إلى بيته في حلب – أيـــام كان ينعم بجو السكينة مع أفراد أسرتـــــه، يوم كان وطنه يعمه السلم والسلام، يوم كانت الطفولة، والبراءة، والفرحة، والبســمة التي كانت تعلو الوجوه دون سبب أو لأدنى سبب ، كلما عاد والده من العمل يعود محملًا بقطع من الحلوى ويعطيه إياها ليوزعها على باقي إخوته، كان يثق به ويريده أن يتحمل مسؤولية إخوته الصــغار، وكأنه كان يعلم ما تخبئه الأيام، أكان والده مكشوفًا عنه الحجاب كما كانت تقول جدتـــه عن أبطال حكاياتها، وكان يعلم أن ابنه سيصبح مسؤولًا عن الأسرة بسـرعة كبيرة أكبر من تلك التي تصورها؟ لكنه رغم كل ذلـك كان يـأخـذ حصـــة أكبر منهم لأنـه الأكبر، وربما مقابل تعب القســمة بينهم، كان والده يعلم بذلك ويبتسم في وجهه.

كان يومها مفخرته بين أقرانه لا يترك مناسبة أو فرصة إلا جاء على ذكر اســمه، والتنويه بما يفعله يتحدث عنه باستمرار، ويقول:

-عصـام ذكي، عصـام له ميول رياضـية، عصـام يتحمل المسؤولية، عصام...

ابتسـم، وهو يلحظ في صـمت المفارقات بين ما يقع الآن، وما وقع معه في الماضي بين أحضان أسرته يوم كانت يـد والده تناوله قطع الحلوى بعد ما يتعلق في عنقه يقبله شكرًا وامتنانًا، وها هو الزمن يجور عليه فيأخذها صدقة على قارعة طريق بلد آخر، ومن يد صديق لم يحسب يومًا أنه سيتقاسم معه الرغيف ولقمة العيش بعدما جمعتهما ظروف الطرد والفقر.

****

لم يكن سالم غافلًا عما يدور في رأس عصام من أفكار، لقد اعتاد عليه يجلس بين الحين والآخر مثل هذه الجلسات؛ ويسافر بعيدًا بذاكرته إلى مدينته يجوب أزقتها، وأحياءها، وشوارعها كما كانت عليه في السابق قبل اندلاع الحرب؛ يطرق أبوابًا لأهله لم يعد لها وجود على أرض الواقع، لكن ذاكرته الصغيرة تذكر كل شيء عنها حتى لون طلاء الجدران، وأشكال الأبواب، وأصص الورد التي تنتشر في مدخل كل بيت وكل حديقة، يذكر الابتسامة تعلو الوجوه، يذكر دفء أحضان من كان يزورهم من ذويه خاصة جدته لوالدته التي حكى عنها الكثير لهما، وكيف كانوا يستقبلونهم بترحاب وبكلام يصعب عليه قول مثله، وكيف كان بعد كل زيارة يسأل والدته التي كانت تجيب عن بعض أسئلته وتمتنع عن الأخرى لأنها تكون منشغلة بأعباء البيت، وتطلب منه أن يؤجل كل الأسئلة إلى حين وصول والده الذي كان يحلو له أن يحدثه كصديق له رغم صغر سنه، لم يكن يعلم أنه يهيئه لتحمل المسؤولية، لم يكن يعلم أنه يتحت بكلامه تاريخ بلده، وحضارته وثقافته وحكايات أهله، وتاريخ أسرته، وأمثال جدته كي يصحب معه هويته أينما

رحل... ولا تدفن تحت الأنقاض كما وقع مع منازل الحي والمدينة.

لم يكن يعلم أنه يخط بحبر لا يمحى ولا يزول مهما تقادم الزمن تاريـــخ العائلة على ذاكرته الصغيرة، حتى شجرة العائلة كان يكلمه عنها، وكان يرسم له تلك الشجرة على دفتر صــغير ويكتب على كل فرع أبناء جد من الأجداد، وكان كلما جاء ذكر اسم أحد على لسان أحـــدهم تعود به ذاكرته إلى تلك الشجرة وكأنها مرسومة على ذاكرته فيبدأ في سرد الأســماء، لم يكن أمام الأب إلا أن يضــم ابنه بالأحضان ويقبل رأسه الصغير. كان عصام يومها يزداد زهوًا بما يفعله معه والده، اليوم وحده يعلم الحكمة من كل ما وقع.

صــحيح ما يقال؛ لا شيء يقع في حياتنا صــدفة، وأن كل شيء مهيأ بمشيئة الخالق. هو وحده يعلم ما ينتظرنا لذلك يرسم لنا سُبل حياتنا، لهذا علينا أن لا نضيع أية فرصة مهما كانت بسيطة للتعلم واكتساب المهارات المختلفة، قد نحتاج إلى تلك الأشياء في مستقبل الأيام، وقد نحتاج إليها في أوقات صــعبة ومنعرجات ضــيقة من تلك المنعرجات

التي نســلكها في دروب الحياة المتشــعبة وتكون وحدها السند، والعون على تحمل أعباء الحياة.

****

كل الذين يعرفون "عصام" يعرفون قصته وحكاياته الطويلة مع الوجع والألم، لم يكن يحب نظرات الـ شفقة من عيون الكبار، ولا ارتاح يومًا لأ سئلة الـ صغار خا صة منها تلك التي تتكرر باستمرار، وتلك التي لها علاقة بالأب على وجه الخصوص:

-أين والدك يا عصام؟

هل قتل في الحرب؟ هل هو حي يرزق؟

هل تعلمون شيئًا عنه؟

هل يتصل بكم؟

كان يثور كثيرًا، ويغضـــب كثيرًا يبدو ذ لك من ملامح وجهه، ومن نظرات عينيه اللتين تبدآن في اللمعان وكأن غيمة تتلبد في ســـمائهما وتنتظر أ ية ريح تهب عليها لتمطر، غير أنه يتجلد، ويتحمل، ويصبر ولا يظهر غضبه لهم لأنه يدرك أنهم يسألون من باب الف ضول، أو من باب الشفقة لا غير، ولماذا ينفجر فيهم، وهل كانت لهم يـــد في ظروفه التي ألقت به بينهم؟ في أحيان كثيرة يفضـل التزام الصـــمت وهو يتابع كلامهم ليرحل في تقاســيم وجه والده،

ويكبر الأمل بداخله قد يلتقي به يومًا، ربما، ولم لا؟ فيبتسم عندما يصل به تفكيره إلى هنا، وينطلق بعد ذلك إلى والدته يرتمي في حضنها يقبل يديها في شوق تَرْبُتُ على كتفه تمرر يدها على رأسه، وهي تتخلل شعره في حنان، تعلم بإحساس الأمومة أن شيئًا جرح مشاعر صغيرها، وأنّ ذكرى من ذكريات الماضي هَبَّتْ ريحها فجأة، وعصفت بأشواقه ليرتمي في حضنها كطفل صغير يبحث عن الأمان، عن الحنان الذي لا يوجد إلا بين أحضان الأم، وأي أم؟ إنها أم بحجم الوطن، بحجم الماضي وما يحمله من ذكريات جميلة، والحاضر وما يعيشه من وجع، والمستقبل وما يحمله من آمال رغم ما يسوده من ضبابية. بعدما تمر عليه فترة بين أحضانها يستنشق رائحتها يطمئن إلى وجوده بين أحضان وطنه من جديد، يجلس إلى جوارها، وهو لا يزال ممسكًا بيدها يلثمها بين الحين والآخر، يرفع عينيه في استحياء، ويقول:

-ماذا عن مقدار أملك في عودة الأب يا أم عصام؟

ترى هل يكبر الأمل مع مرور الأيام، أم يتقلص حجمه؟ وقبل أن تفتح شفتيها لتجيب وهو يدرك تمام الإدراك أن

كلماته تدمي جروحها التي لم ولن تندمل، ولن تشفى مهما شـــاخ بها العمر، كما يعلم أنها بمثابة تلك النقطة التي ســـتفيض كأس دموعها التي تحاول جاهدة منعها من النزول أمام أنظار أبنائها كي لا تنقص من صـــبرهم، وهي التي عليها أن تبدو قوية، ومنها يستمدون قوتهم وصبرهم على التحمل يضيف:

-ما رأيك يا والدتي؟ لقد ســـــرحت قليلًا أفكر في والدي، مارًّا بكل الأحداث الماضية في ذاكرتي، وفي انقطاع أخباره عنّا، وكيف أنه من أوصـــاك بالرحيل والابتعاد بنا عن الخطر الذي كان يتربص بنا كل لحظة، كبر الأمل فجأة في أعماقي واتسـعت عيناي لتسـع بريق الأمل وفرحة عودته إلينا من جديد تملأني، وتفيض على جنبات قلبي لم أستطع البقاء بعيدًا عنك تَبِعْتُ شعاع الأمل، وجئت إليك أخف الخطو لتشاركيني الفرحة، وربما لتضيفي إليها الكثير من الأمل. تنفرج شفتاها عن ابتسامة تزرع بها أملًا أكبر في أعماقه، وهي تحضنه كأنها تحضن أمله بعودة الأب تربت على كتفه من جديد، وتردد:

-إن شاء الله سيعود، لم أشك لحظة في عودته إلينا، ليس بإمكانه التخلي عنا بسهولة، أبوكم كان قويًـــا محبًا للحياة، وكان يحبكم كثيرًا، وليس من السهل على إنسان متشبث بالحياة وبأبنائه بالقدر الذي كان عليه أن يفرط في حياته بســـهولة، ويلقي بنفســـه إلى التهلكة. حقًا حبه لوطنه وبلاده لا يضـاهيه حب؛ لكنه يحتكم إلى العقل في غالب الأحيان، كان يعلم من البدايـــــة أن ما يقع في البلدان العربية، وما يقع في حلب هو مجرد حرب عمياء غايتها تدمير الشعوب، وتدمير الإنسان والغرض الأساسي منها هو إذلال العرب، والتقليل من قوتهم من أجل التفريق بينهم، وإشـــعال نار الفتنة التي لا تخبو بين القبائل والطوائف إلا لتتأجج من جديد. كثيرًا ما تحدث عن المخطط الصـهيوني الذي يسـعى إلى ضرب كل البلدان التي تقف في وجهه، وسـوريا يا ولدي كما يشـهد التاريخ كانت على قائمة هذه البلدان، فكيف يعقل أن يتركها الكيان الصـهيوني تنعم بالسـلم والسـلام، لا بد من إيجاد وسـيلة لخلخلة الأمن والاســتقرار وتحويل أنظار الشــعوب، نعم كان الهدف هو التقســيم. أنا يا ولدي لا أفهم كثيرًا في السياسة، ولكني كنت أتابع كل ما يقال، وكنت أتابع أكثر

ما يأتي به والدك من أخبار. لا زلت أذكر يوم اندلعت شرارة هذه الحرب المدمرة عند ما تصاعدت موجة احتجاجات الربيع العربي، وكيف تم قمعها حين نادت برحيل الرئيس، وكيف تدخلت العديد من الفصائل، وذلك التحالف الفضفاض مع الجماعات المتمردة. لا زلت أذكر يوم تجمع مئات السوريين بمنطقة الحريقة بقلب دمشق كان الاحتجاج ضد إهانة الشعب السوري، تلاه الاعتصام أمام السفارة الليبية في نفس الشهر، وتدخل الأمن لتفريق المتظاهرين، وقيل أنه استعمل خراطيم مياه المجاري، كما تم اعتقال عدد كبير منهم، وبعدها انطلقت الشرارة الأولى في شهر مارس بصرخة الحرية التي أطلقتها إحدى الفتيات تدعى: "مروة الغلمان" في قلب دمشق حين هتفت في سوق الحميدية، وهي تحمل العلم السوري على كتفيها وتم اعتقالها.. والدته تحكي تفاصيل البدايات كما وصلت لها عن طريق والده وما تناقلته الأخبار، وهو يتطلع إليها مستغربًا لم يشأ مقاطعتها تركها مسترسلة في سرد ما تعرفه لعلها تخفف من ثقل ما يوجد بداخلها، وحين توقفت سألها مستغربًا:

-كيف تذكرين الأحداث بكل هذه الدقة؟ و تذكرين أيضًا التواريخ، والأسماء والأمكنة؟ لابد أن لك ذاكرة قوية تمكنك من تذكر كل هذا.

-مثل هذه الأحداث لا تنسى يا عصام، تظل معنا نتذكرها باستمرار ولا تغيب عن أنظارنا، إن مشهد انطلاق الشرارة الأولى لازال يتكرر، وليس ما وقع في سوريا فقط بل لا زال مشهد انطلاق شرارة هذا الربيع الذي دمرنا وشردنا بعد العز، كما وقع أول الأمر في تونس التي انطلقت منها الشرارة الأولى بإقدام البوعزيزي على حرق نفسه يتكرر؛ وكأنه يحرق أكبادنا بما أقدم عليه، وما مر بباقي البلدان من أحداث، كل ذلك لا يزال يتكرر باستمرار، ويطرق ذاكرتنا بإلحاح ليمثل أمامنا من جديد، هو أصلًا لم يغادرنا لا زلنا نعيش أحداث الثورة، لا زال التشرد يلفنا والضياع يجمعنا بها، وسيظل يلازمنا إلى آخر نفس نتنفسه. من با ستطاعته أن يمحو من ذاكرتنا ما تجرعناه بسبب هذه الثورة، وهذا الربيع الحارق؟

نحن لم يكن همنا سوى لقمة عيش، وبيت نسعد فيه مع أسرنا، لا همّ لنا بالسياسة، وما يجري في كواليسها، لم

نحلم يومًا بأكثر مما كنا عليه؛ كان همنا الوحيد أن نصل بأبنائنا إلى بر الأمان، وها نحن نعود إلى نقطة الصفر بل تعود عقارب الزمان مسرعة لتتوغل بعيدًا في حقب سحيقة تعود بالشام، وغيره من البلدان العربية مئات السنين إلى الوراء تتجرع مرارة المجاعة، والأوبئة، والأمراض، والفقر، والتشرد، والهشاشة في كل الميادين، ويضرب الجهل عميقًا في أرض كانت منارة العلم ومشعل المعرفة.

هل تعلم يا صغيري كم يلزم هذه البلدان للوقوف من جديد على أقدامها وتعود إلى ما كانت عليه سابقًا؟ آه يا ولدي، باختصار ضاعت سوريا وضاعت معها آمالنا، وضاع التاريخ الذي شيده الأجداد، مرغوا الحضارة ومشوا على رفاتها ..

تتوقف عن الكلام وقد دمعت عيناها وهي تتحدث عن الضياع الذي لحق ببلادها، ضمت إليها "عصام"، ومسحت دموعها لكي لا ينتبه إليها، لكنه قال معتذرًا:
-لست أدري كيف أعتذر لك يا والدتي لما سببته لك من حزن؟

-أنا لســـت حزينة يا ولدي، أنا قوية، وما يزيدني قوة وجودك وإخوتك إلى جواري، وكلما رأيتك تكبر يومًا بعد يوم وتبحث لنا عن الرغيف تزداد قوتي، ويكبر أملي في عودة والدك لأحدثه عن بطولاتك، عن رجولتك قبل النضــج، عن كل ما قدمته لي ولإخوتك، لأخبره أننا وإن كنا اشــتقنا إلى وجوده معنا فإنه قد تركنا في عهدة رجل يخاف علينا ويرعانا يتحمل كل شيء من أجل إخوته، وتضيف:

-إن شــاء الله يجمع شــملنا قريبًا، وتحط الحرب اللعينة أوزارها، ويعمّ السلم والسّلام، ونعود إلى وطننا من جديد. كانت تأبى أن يرى أحـد أبنائها دموعها لم تكن ترغب أن تقلل من عزيمتهم، تمدهم بالطاقة وهي تفتقد إلى القليل منها، ضــاع منها المســكينة كل شيء وهي تســمع دوي الانفجاريات المتتالية وأضـواء الصـواريخ تلمع في السـماء فوق رؤوســهم، والطرق المتتالي على باب البيت، وجارهم السيد عمار يصيح يا أم عصام أســـرعي، القذائف لن تمهلنا. فكرت يومها بسـرعة في نصيحة زوجها كلما غادر البيت صباحًا:

- يا أم عصـــام، إذا وقعت غارة على الحي لا تتأخري في الخروج بالأبناء، إنهم أمانة في عنقك، حافظي عليهم، إنهم المستقبل، لا تتركيهم يُدْفنوا تحت الأنقاض، أرض الله واسعة، اتبعي باقي الجيران والله يتولاني ويتولاكم ويتولى الجميع، كان كلامه يشجعها وتبتسم رغم الجراح، وتقول:
-ربما نلتقي يا أبا عصام.

****

لم تكن حكاية صديقهما مامادو أقل حزنًـــا منهما، وإن كان يبدو متجلدًا صابرًا بـــدوره، المظاهر غالبًا ما تخدعنا نحن لا نعرف ما يدور في أعماق الآخر قد يضـحك وقلبه يفيض حزنًا، وقد يبدو قويًا وهو أ ضعف مما يتصور، وقد.. وماذا علينا فعله؟ نحن لـ سنا مـ ضطرين لـ سؤال كل واحد على حدة، ووضـعه تحت اختبار لنصـدر أحكامنا بناء على ذلك.

كلا، يكفي أن نعلم أن وضـعه ليس طبيعيًا، أليس تواجد إفريقي من نيجيريا ببشـــرته الداكنة على رصيف بلد آخر كافيًا لنتصور ما يعانيه، وما عانى منه من قبل أن يصل إلى هنا.

-هل جاء إلينا بمحض إرادته؟

-هل اســتقل طائرة، وحلق عاليًا مع الطيور لينزل بعدها على أرضــنا؟ هل جاء حبًا في التســول على أرصــفتنا؟ أم تراه يعشق التسول والتشـــرد والبعد عن الأهل لدرجة تجعله يسلك جميع السبل، ويتعرض لكل المخاطر التي مر منها ليقف في مكانه هذا؟

كلا، وألف كلا مضـــطر هو لا بطل. من يرضى مغادرة بلده وأهله ليعانق التشـرد والضياع على أرض أخرى لا تمت له بأية صلة.

يكفي ما حكى عنه في الأيام الأولى التي جمعت بينهم عن رحلة الشـــقاء التي اجتازوا خلا لها صـــحراء نيجيريا والنيجير والجزائـــــر، وعن الأهوال والرعب والخوف الذي ســـكنهم طيلة أيام الرحلة؛ أحيانًا يســـتمر مشـــيهم ليلًا، ويلجأون إلى الاختباء والتســـتر نهارًا لأن هناك عيونًا تتربص بهم، وهناك من يراقب الحدود، ومن يراقب تلك الصحراء رغم شساعتها، هناك أيضًا قراصنة البشـر الذين مهما قال عنهم لا يمكن أن يصـــف ما يتملكهم من جشـــع، ومن حب للمال وكراهية لكل الناس، لا هم لهم سوى الربح.

أناس يبيعونك لأجل عضـــو فيك، يبيعونك لأجل أن يتظاهروا أنهم يقومون بعملهم على الوجه الأكمل، إذا لم تدفع لهم كل ما يطلبونه مقابل الســـماح لك بإكمال رحلتك، دفعوا بك إلى أنياب أشـد فتكًا من هذه الصـحراء التي يتيه فيها الجميع، لحسن حظه كان برفقة أخيه الأكبر

ومع مجموعة من أبناء قبيلته وكلهم عملوا ما في وسعهم كي يظلوا مجتمعين طيلة أيام الرحلة، كانوا سندًا له ليس لأنه أصغرهم سنًا لقد كان من بينهم من لم يتجاوز الثالثة من عمره برفقة والدته وكانت هناك فتيات في عمر الزهور من بنات البلدة المجاورة حافظوا عليهن في رحلة الشقاء التي مروا بها، كما كان هناك من تجاوز الثلاثين هؤلاء هم قادة الفريق وهم الأشداء، وهم من كانت بحوزتهم خريطة الطريق كما رسموها لهم قبل انطلاق الرحلة، كما كانت في حوزتهم بوصلة تساعدهم على اجتياز هذه الصحراء المترامية الأطراف.

في الصحراء الأمر يختلف؛ عليك أن تنتظر متى تغادر الشمس قمة رأسك لتستأنف الرحلة من جديد، إذا حاولت المسير نهارًا تكون مكشوفًا لديهم ويسهل عليهم تصيدك وتصبح صيدًا ثمينًا، عليك باستمرار البحث عن شيء تختبئ خلفه، لأن الصحراء كما هي طبيعتها الجغرافية رمال على امتداد البصر ولون واحد لونت به لذلك تجد من يمر منها مكشوفًا للعيان، باستثناء الكثبان الرملية التي تتنقل بدورها في رحلة دؤوبة لا تتوقف

مستمرة في سفرها استمرار الزمن، لكن الرياح بالرغم من المتاعب التي كانت تسببها للعين والرؤية بشكل عام إلا أنها خدمتنا كثيرًا كما خدمت غيرنا فهي بهبوبها تجر معها حبات الرمال لتغطية كل أثر للأقدام وإن كان حديثًا. أثناء الرحلة تحس بحاجتك تزداد إلى الماء، لحسن الحظ كل واحد منا كان يحمل ما يكفيه، كما كنا نتزود ليلًا من القبائل والمداشر التي نمر منها خلسة خوفًا من أن يكتشف أمرنا ونعود على أعقابنا، أو يزج بنا في سجن لا نعرف منه مخرجًا، ويطبق علينا قانون يخضع لشريعة مافيا البشر.

وربما قضينا عبيدًا عند قطاع الطرق الذين يتربصون بأمثالنا، وكان مصيرنا سوق النخاسة ليستغلونا في الأعمال التي تدر عليهم الربح، ويعاملونا معاملة العبيد مقابل لقمة لا تسد الرمق كما سمعنا عن حكايات كثيرة لمن سبقونا وممن عاد منهم بخفي حنين بعدما تمكن من الفرار منهم بأعجوبة، ولم يستطع أن يكمل رحلته من غير زاد ولا ماء ولا رفيق طريق.

كنا كلما رأينا غريبًا متجهًا إلينا تحسبنا لخروج عدد كبير كانت خطتنا مدروسة؛ أن نفترق وفي الوقت نفسه نسير في خط واحد واتجاه واحد وإذا ما أحسسنا بالخطر اختبأنا. فعلًا وصل مامادو مع من وصل، ويعلم الله ماذا حل بمن غاب عنهم خاصة من أولئك الذين التقوا بهم في طريقهم وجلهم كانت وجهتهم المغرب لمِا وصلهم من أخبار ممن سبقهم ليس لكونه بوابة أوروبا فحسب، ولكن لكونه بلد مضياف ولكون أهله كرماء يحسنون إلى الغريب. كان يحكي بلوعة عن أولئك الذين لم يتمكنوا من إكمال الرحلة، وربما كان مصيرهم الموت جوعًا وعطشًا ليصبحوا بعد ذلك طعامًا للطيور الجارحة. وعن تلك الجثث التي تركوها على طول الرحلة، ولم يتعرفوا على شكل أصحابها. وربما كانوا من عائلاتهم ومن أقرب الناس إليهم لأن لحمها نهشته الطيور. كان ما رأوه في طريقهم، وما مر بهم حافزًا لهم على الاستمرار في المسير لكي لا يتعرضوا لنفس المصير.

****

اليوم مامادو يتظاهر بالقوة، ولكن قلبه مكســـــــر إلى شظايا صغيرة في حجم تلك الرمال التي كانت تعصف بها الرياح وتسد عليهم الأفق، وتحجب عنهم الرؤية لساعات طوال.

كل من يراهما اليوم يظنهما مختلفين في كل شيء كما هما مختلفان في اللون، واللغة، والبلد، والعقيدة، لكن الجرح الكامن في الأعماق واحد، لقد وحدهما الوجع، وحدهما الضـــياع، وحدتهما الحاجة، جرحهما ينزف في صـــمت، أصـــبحا بـدون وطن، بـدون انتمـاء، بـدون هويـة... صعب أن تعيش بدون وطن، أن تقف على أرض وطن آخر لا جذور لك تمتد عميقًا في تربته، تحس بالضياع ويسهل على أول ريح تمر بك أن تقتلعك وتوقعك أرضًـــا إلى أن تجف و تتلاعـب بـك ر يح هوجـاء كمـا يحـلو لهـا. ما أتعس الغربة عن الوطن! وما أتعس ما تعيشـــه بعض الأوطان! مما يدفع بأبنائها إلى الرحيل من غير اختيار الوجهة المهم هو الفرار.

رصيف واحد يجمعهم، وربما مصير واحد، لا أحد يعلم ما تخبئه الأيام من مفاجآت، لكن العلاقة بين أصـــدقاء

المحنة أصـــبحت وطيدة، وحّدوا هدفهم كل واحد منهم مسؤول عن أسرة ويبحث عن اللقمة، اختلفت الظروف التي جمعت بينهم، ووحدهم الهدف ومشـــقة الحياة؛ كل واحد منهم كان متقد الذكاء ممتلئًا نشـاطًا وحيوية، العيون تشـي بقدرات غريبة على التحمل.

لكن ما جدوى ما يحس به كل واحد في أعماقه، وما ترسله الأعين من إشارات إذا كان كل واحد منهم يقضـــي اليوم في التسول ويعد عدد المرات التي تكون فيها إشارة المرور الحمراء بعدد الدراهم التي يجنيها أو بعدد علب الورق التي يبيعها.

****

صـــديقا المحنة غالبًا ما كانا يتركانني وشـــأني لأنهما تفهما مدى احتياجي إلى الانفراد بنفسـي في أوقات كثيرة، فباتا كلما وجداني دخلت في وحـــدتي تركاني لها وحدها تنفرد بي لتأخذني بعد ذلك حيث تشـــاء تجوب بي أزقة ودروبًا وأماكن كانت لي فيها ذكريات لم يســـتطع البعد أن يمحوها وإنما زادها حضـــورًا، غير أن ســـالمًا كان يخترق أحيانًا ســـكوني، ويحاول كما هي عادته بأســـلوبه المرح أن يخرجني مما أنا فيه فينجح أحيانًا ويعود مرات أخرى خائبًا. كنت كلما خلوت لنفســـي تذكرت ما أحاط بنا من ظلام دامس ليلتها وأنا أجر أختي الصغرى، وأخاف أن تقع مني في إحدى الحفر التي امتلأت بها الطريق، أخاف أن أتعثر أو تتعثر هي فنتأخر في المسير، ونتخلف عن الركب ونتيه عن والدتي فنشرد بعيدًا عنها.

كنـت لا أعرف غير الخوف من الظلام، من صـــوت الصواريخ، من صوت الرصاص، من الليل، من نباح الكلاب الضـــالة التي تأخرت بدورها عن الرحيل، وربما كانت تقتات من أشـــلاء الإنســـان التي امتلأت بها الطرقات. الخوف من المجهول الذي نمضـــــــي في تجاهـه.

أدركت بعدها أن الخوف كان مصـــدره غياب والدي عنا تلك الليلة ورحلنا من دونه، لم نسافر يومًا من غيره، ولم يتخلف عنا يومًا، ولم يتركنا قط لوحدنا كان ســـندنا وقدوتنا في كل ما كنا نقوم به.

ها هي ليلة الخوف بكل المقاييس نجتازها وحدنا، كنت أظن والدتي القائدة للرحلة، وكنت أرغب أن أتقمص دور والدي رغم الخوف الذي اســـتوطن أعماقي، تبين لي بعد طول المســـير أن والدتي بدورها تتبع قافلة من الهاربين من ويلات هـذه الحرب وربمـا كان الذي يوجـه الجميع في المقدمة، وقد يكون أكثر من واحد، دائمًا أقف على صدق المـقـولـة: "مصـــائـب قـوم عـنـد قـوم فـوائـد" هؤلاء ينتهزون ما حلَّ بالبلاد من مصـائب، ويعملون على ترحيل العباد مقابل مبالغ خيالية، لا يناقشـــون ثمن التهجير أو الرحيل أو... تعددت الأسماء والمصيبة واحدة. لكل فرد مبلغ محدد، ولكل وجهة ثمن معين، وقد يتخلون عنك بمجرد ما تداهمهم دورية شرطة أو دورية لمراقبة الحدود، لكن الحظ كان هذه المرة إلى صـــفنا، وما أدراني ربما كانت شـــبكة منظمة ولها اتصـــال مع جمارك الحدود

ولكل واحد نصـــيب، المهم بقاؤنا على قيد الحياة، نشـــتري التشرد على أرض وطن غير وطننا بعدما ضاقت بنا الأرض ولم تعد تسعنا.

لماذا يا ترى كلما خلونا إلى أنفســنا رغبنا في اجتياز متاهة النفس رغم صعوبة المسالك، وأجهدنا ذاكرتنا في محاولة منا لإزالة ما علق بها من غبار أو ما شـــابهه في عملية للتنقيب عن كل الأوجاع والأحزان التي مرت بنا ومررنا منها؟ أهو نوع من التعذيب للذات؟ أم أننا نحس بالراحة النفســـية ونحن نجتر أحزاننا جملة؟ ولماذا تجدنا نكثر الوقوف عنـد تلـك النقط الكثيرة الســـواد وننبش في تفاصـــيلها فلا نتوقف إلا بعدما تســـيل جراحها وتدمع العين من فرط تأثيرها فينا كأننا نرفض أن تلتحم، وتدخل بدورها إحدى ملفات النســـيان لتطويها الأيام ضـــمن ما طوت من أحداث؟ هل هو إمعان في جلدنا؟ أم هو رفض للنســـيان وطي صـــفحة الماضي خاصـــة المحزنة منها؟ ولماذا كلما كنا مع رفقة أحد ننشـــغل عن كل ما بداخلنا، وإذا مررنا بها لا نطيل الوقوف وربما تجاوزنا كل التفاصيل الكبيرة منها قبل الصـــغيرة؟ صـــحيح الأحداث لا تغيب

جملة بين الفجوات خاصــة الحزينة منها، تظل تطل علينا تلك الصور لنرسم تلك النظرة الحزينة أو نخرج تلك الآه التي تكون وحدها كفيلة لفضــح الثقل الذي نحمله في أعماقنا.

وربما كان مرده إلى أن وجودنا مع هذا الآخر الذي يشاركنا الحياة فيه نوع من التشويش على أفكارنا، وانشغال مؤقت عن المواقف التي مررنا أو نمر بها.

****

تعب عصـــام من الوقوف على الرصـــيف، لم يعد يحتمل الإهانات ونظرات المارة له، حتى نظرات الشـــفقة كانت بمثابة ســـكاكين حادة تمزق إحســـاســـه، كل شيء يذكره ببلده، بمحنة أهله، بوالده الذي لا يعلم عنه شـــيئًا، تعب من التفكير في حالته وحال الأسرة التي أصـــبح مســـؤولًا عنها، وأخيرًا قال بصوت عالٍ:

-لا بد من حل آخر، أجل، لن أقضـــي عمري في التسول. مـاذا لـو اســـتـمـر البـعـد عـن الـوطـن لســـنـوات؟ وماذا لو لم يعد الأب؟

هل سأظل أتسول لسد حاجات الأسرة العالقة في رقبتي؟ عندما وصل به التفكيـــر إلى هذا الحد أشار إلى كل من مامادو وسالم ليقتربا منه، وعندما أصبحا على مقربة منه أشـار لهما أن يجلسـا إلى جواره على عتبة البيت الذي يحلو له الجلوس قربه، جلسـا كما أمرهما دون أن يقولا شـيئًا، وظلا ينتظران بماذا سيخبرهما وأية فكرة هاته التي دفعت به إلى جمعهما.

قال سالم:

-لا بد أنك تريد أن نتغيب عن العمل مساء لنخرج في رحلة إلى جوار البحر كما اتفقنا سالفًا؟
نظر مامادو في ترقب وهو يتابع المشهد، لا يفهم الكثير مما يقال حوله رغم كونه تعلم بعض الكلمات بالعربية غير أنهما كلما تحدثا بسرعة لم يفهم شيئًا وخاصة لهجة عصام التي تبدو غريبة على مسامعه، وإن كان بدوره يحاول جاهدا التواصل مع سالم بتعلمه لكلمات بالدارجة المغربية.
لم تكن اللغة لتفرق بينهم، كان التواصل يتم بأية طريقة، ولا يتوقفون عن الشرح حتى يتم ارتياح جميع الأطراف، ويضرب الواحد منهم كف الآخر علامة على التواصل والفهم.

أخيرًا قال عصام لهما:

-لا بد أن نوفر القليل من المال ونبدأ معًا في مشروع صغير، هكذا كان يقول والدي:

إن الله تعالى خلقنا بعقل كي نعرف كيف نتدبر سُبل حياتنا، وكي لا نكون لقمة سائغة أمام وحوش من بني البشر؛ ينهشون في لحمنا ويدمّرون طاقاتنا مقابل القليل من المال الذي لا يسد الرمق، كان يستدل على ذلك من

حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:
(علموا أبناءكم التجارة ولا تعلموهم الإجارة)
آه! يا والِدي، تُرى أين أنت الآن؟

بقي كلامك يتردد على مسامعي؛ شحنات من الطاقة تمدني بها نصائحك رغم بعد المسافة، ورغم أني كنت وقتها صغيرًا، ستظل عالقة بذهني، وستظل تصلني بنبرات صوتك، ولن يستطيع الزمن مهما ابتعد بنا أن يغير منها شيئًا.

حقًا يومها لم أكن أفهم كل كلا مك لكني كنت أتظاهر أحيانًا بالفهم لأنال إعجابك وفخرك، وربما كنت بدورك تتظاهر أنك صَدَّقْتَ ما قلته لك لتشجعني أكثر، ولتمدني بجرعات من الطاقة يستمر مفعولها معي على امتداد سنوات العمر.

أحيانًا أفكر بيني وبين نفسي، ترى أكان حدسك يخبرك أنك ستبتعد عنّا؟

وأنك ستتركنا في يوم من الأيام لنواجه وحدنا عواصف الدهر لذلك هيأتني لتحمل كل هذه المشقة؟

أم أنها طبيعة الرجل أن يخبر ولده البكر بكل صغيرة وكبيرة لأنه يرى فيه من سيتحمل أعباء الأسرة من بعده. آه يا أبي لو يعود بي الزمن إلى الوراء قليلًا لما تركتك لحظة، لتعلمت منك كل شيء، كم هي جميلة نصائحك!؟ كم كانت حافزًا للاستمرار في هذه الحياة، وخوض معاركها رغم مرارة ما نتجرعه على امتداد أيامنا!؟ أجل كان يؤكد باستمرار على هذا الشيء الذي ميزنا به الله تعالى على باقي المخلوقات ـ العقل ـ يقول:

-ميزته أن لا نقف مكتوفي الأيدي وأمامنا مئات الحلول ما علينا سوى إعمال العقل والتفكير بروية، ودراسة أي شيء قبل أن نقوم بأول خطوة، وحتى إذا مشينا خطوات في طريق اخترناه، وعلمنا أننا على خطأ علينا أن لا نتمادى في المسير، بالعكس علينا أن نعود أدراجنا بأقصى سرعة قبل أن نتوغل أكثر، أو أن نصل إلى باب مسدود ونحس بذاك الفشل الذي يقتل كل عزيمة، وإذا ما وقفنا في مواجهة مع ذاك الباب المسدود أو صدمنا ذاك الجدار، علينا أن نحاول مرات ومرات ونستفيد من كل مرة ومن كل تجربة. لأن الحياة ما هي إلا مختبر لتجاربنا، وحلاوة

الحياة تكمن في المتاعب التي نعيشها، لأننا لا نحس بلذة النجاح إلا بعد تعدد الانكسارات والهزائم، أما الأشياء التي نحصل عليها بسهولة لا تعرف تلك الحلاوة.
كان يتكلم عن والده وهما ينظران إليه بتمعن؛ كل الطرق والمعابر مهما ضاقت أو اتسعت تلك التي يسلكها في حديثه تؤدي به في النهاية إلى الحديث عن أوجاعه وآلامه، وفقد والده، وإلى ما حل به وبأرضه... ظلا يستمعان إليه، وهو مسترسل في الحديث عن والده.
-لم يكن والدي يحب التعب في الحياة، ولكنها طريقته كي يعلمنا أن لا يأس مع الحياة، ويستدل دائمًا بذلك الطفل الذي يولد في أسرة غنية و يجد الخدم والمال الوفير، يقول عنه:

-أنه محظوظ وكأنه ولد بملعقة من ذهب في فمه، ويضيف أن هذا الطفل قد يأتي عليه يوم يواجه فيه الحياة وحده ولا يحسن يومها التصرف، وقد يضيع منه كل شيء لسبب من الأسباب، ولا يعرف بعد ذلك كيف يخرج من محنته ليقف على قدميه من جديد ليواجه معترك الحياة، أما الآخر الذي تعصره الحياة دون شفقة وعلى امتداد أيامها

تســقيه مُرّها قبل حلوها، يتعلم من تجاربه ومحنه، يتعلم من فشــله وانكســاراته، يتعلم من تلك الطعنات التي تترك جرحها الغائر بداخله قبل خارجه، نعم يتعلم على امتداد أيام عمره، ويكون يقظًا باســتمرار، وحريصًــا على المال الذي تعب حتى أصبح يحتكم عليه.

****

أخيرًا تدخل سالم:

كم هو جميل أن تعيش بأفكار والدك، لا بد أنه كان مثقفًا ويعرف الكثير عن الحياة وتجاربها.

ـ أجل يا سالم، والدي كان كذلك، كان رمزًا للشهامة وعزة النفس، كان يقرأ كثيرًا، ولم يشأ أن يشتغل بوظيفة مع أنه كان بإمكانه ذلك. فضل أن يسلك طريق والده (جدّي) واشتغل بالتجارة وأصبح له اسم في السوق، كان يعيل العائلة كما كان يساعد كل أفراد العائلة الكبيرة، لم يكن يومًا بخيلًا هكذا تتحدث عنه والدتي، وكانت البركة لا تخلو من رزقه ربما بسبب كرمه كانت تفتح أمامه أبواب الرزق، وربما لذكائه فهو تعلم أصول التجارة منذ صغره، وكان بارعًا في الرياضيات كان كل أعمامه وأخواله ينتظرون أن يصبح طبيبًا جراحًا، أو مهندسًا مشهورًا لكنه لم يخب ظنهم وأصبح تاجرًا وافر الرزق.

كان عصام يتكلم عن والده والحنين يشده إليه بقوة، لاحظ صديقاه بريقًا في عينيه، فقال مامادو الذي غالبًا ما كان يشاركهما الكلام بكلمات قليلة، ولكن حركات عينيه تدل على مدى انفعاله، وإحساسه العميق بالوضع. قال،

وهو يجتهد أن تكون كل كلماته بالعربية التي تعلمها:
- إذن ماذا نفعل يا ترى؟ وهل نسلك طريق والدك، ونعمل بنصائحه؟ لقد حاولت كثيرًا وطرقت العديد من الأبواب، المؤسف أن الناس لا يصدقوننا نحن السود حتى قبل أن يختبرونا، نظراتهم لنا هي الحَكَمُ، هي الفاصلُ، كأن البشرة السوداء تفضح نوايانا وأننا سنخون الأمانة ونرحل. يحكمون علينا قبل أن يجربونا، يقولون عنّا أننا لا نحب العمل ونفضل الكسل والتسول، وهل وجدنا عَمَلًا شريفًا يضمن لنا ماء وجوهنا ويحمينا من الحاجة وامتنعنا عنه؟ إنهم يعمدون إلى إذلالنا بتشغيلهم لنا في أصعب الحرف، وبأبخس الأجر يظنون أننا أقوياء بالنظر إلى بنياتنا. نعم نحن كذلك، لكننا في النهاية نحن بشر؛ نحس ونتألم، ولنا مشاعر لا نريد أن تجرح بأي كلام، كما لا نرضى بالذل يكفي ما تجرعناه من إهانات. يتكلم ما مادو، ويلمحه عصام بنظرات هادئة وابتسامة سخرية من القدر لا تفارق شفتيه، استرسل وكأنه يخاطب عصامًا الذي كان يتابعه بنظراته بينما سالم يرسم بعصا صغيرة دوائر على الأرض كأنه يدور في حلقة مفرغة في هذه الحياة التي تاه فيها مبكرًا.

-أتعرف يا عصـــام كيف كان شـــكل والدي؟ كان فارع الطول، بنيته قوية، ضـــخم الجثة، تخاله أحد المصـــارعين الذين تراهم في حلبة المصارعة على الشا شة، جسمه يلمع تحت أ شعة شمس الصحراء الحارقة، أفنى عمره في العمل، وفي الأخير أ خذوا منه قطعة الأرض اليتيمة التي ورثها عن والده، والبيت الوحيد الذي كان يحمينا من الحر تحت ســـقفه وبين جدرانه، وعندما قاوم مع مجموعة من أهالي القرية الذين كان لهم نفس المصـــير، وجدناه جثة هامدة في طريق مقفر بعد ما بحثنا عنه طويلًا. وقتها لم يبق أ مام والدتي ســـوى أن تبعث بنا في رحلة الضـــياع، بعدما باعت ما تحتكم عليه كي لا نلقى نفس مصـــير والد نا، نَفِرُّ أ نا وأخي الأكبر مني من أيـــدي هؤلاء القتلـــة لتحضـــننـــا الصحراء بشساعتها وامتدادها وكل رمالها ومخاوفها، سرنا أ يامًا ولياليا لا نعرف أين الوجهة نتبع آ ثار قوم مرّوا من قبلنا لا أثر لأقدامهم الرياح تتلاعب بالرمال وتطمس كل أثر للأقدام لكن مُرشـــدنا في رحلة الضـــياع عظامٌ نتعثر فيها بين الحين والآخر نعرف منها أننا لا زلنا على الطريق ا لصحيح، ألا يقال عندكم "م صائب قوم عند قوم فوائد" هذا ما حصـــل معنا، مات الآخرون ليكونوا لنا مصـــباحًا

منيرًا في رحلتنا ونهتدي بهم إلى الطريق الصحيح، وطيورًا تحلق فوق رؤوسنا دليلًا على وجود جثث حديثة العهد تتغذى عليها، تنهد بعمق وأضاف:

نحن يا أخي مجرد حثالة، وغرقى في أوحال أوطاننا لأننا نعيش على الهامش وفي المنحدر، ومن يسكن الهامش كل البقايا ترسو إلى جانبه، حياتنا تمضي على وثيرة واحدة؛ نقضي الوقت في إعادة ترميم الجدران التي تحمينا بعدما تآكلت أو انهارت لسبب من الأسباب؛ زلزال، عاصفة رعدية، رياح قوية.. كما تجدنا نفني الوقت المتبقي في البحث عما نسد به الرمق كي لا نقضي جوعًا، نبحث في قمامة الأغنياء عن فضلات الطعام، وما استغنوا عنه من ملابس حين لا يكفينا المبلغ الزهيد الذي يرموه لنا مقابل ما قدمناه لهم من عمل، طول الوقت نصارع من أجل البقاء. في حين الآخر لا يكترث بنا بل يكاد لا يرانا، ولا يسمع صوتنا، نحن بالنسبة له مجرد حشرات، حتى الحشرات ينتبه إلى نفعها ولا يفكر في إبادتها لأنها تتغذى على أجسادنا، وإذا أبادها سيقدم لنا خدمة وهو يرفض أن يقدم لنا حتى أبسط الخدمات، وإن كان من

حقنا التمتع بصحة جيدة، وتعليم جيد كي نكون مواطنين صالحين، ولكن لماذا يهتمون بتعليمنا هل لنعرف الواقع، ونفهم الأوضاع أكثر، ونثور في وجوههم في يوم من الأيام، إنها سياسة تنهجها الحكومات المستبدة؛ تضرب أمثالنا في أهم النقط حساسية؛ التعليم (الفكر) والصحة. نحن في قريتنا مثلًا بعيدون عن الحضارة بآلاف السنين، فعلًا نعيش مع باقي الشعوب نفس الحقبة من الزمن نسجل نفس التاريخ، وفي نفس الزمن الذي غزت فيه العولمة العالم لكننا لا نعرف عنها شيئًا لا زلنا نتخبط في الجهل حتى أدوات الزراعة التي نستعملها بسيطة بساطة قريتنا، وكيف يتأتى لنا القضاء على المجاعة والفقر بوسائل بدائية من صنع القرويين أنفسهم، وبوسائل بسيطة بساطة إمكانياتهم ومحدودة كأفكارهم وباقي العالم في تطور مستمر. أخرجه من شجونه قول سالم، وهو يبتعد بخطوات عنهما ولا زالت العصا الصغيرة تلازم يده:

-هيا يا إخوتي دعنا نعود إلى العمل، أم أن اليوم مخصص للذكريات أرى هذا الجبل الضخم سينهار فوق رؤوسنا، ومن بمقدوره أن يحمينا من ذكرياتنا وهمومنا فهي

تســكن الأعماق منا؟ كانت نظرته الجريئة تعكس خبثًا وفطنة مع أنه طيب القلب، لكن ظروف الحياة القاسـية دفعت به بدوره إلى الوقوف على الرصيف، لوح له الصديقان معًا وكانت إشاراتهما قرأ منها نوعًا من اللامبالاة فيما طلبه منهما، فطن إلى أنهما قد جرفا تراب جراحهما ولن يتوقف الحديث عن غربتهما بتنبيه منه مهما كان قاسـيًا اغتنم سالم إشارة الضوء الأخضـــر من جديد وعاد إليهما بخطًى واسعة، وهو يقول:

-ما بالكما اليوم الواحد ينصحنا بالعمل في التجارة ويعود ليسافر في ذكرياته مع والده، والآخر يتحدث عن سوء ظن الناس به، وينطلق في رحلته وما تكبده من ويلات، هل تعتقدان أني الأوفر حظًا منكما؟ ابتسـم عصـام في لباقة، وقال:

-دعنا قليلًا يا سالم نفرغ همومنا ونحكي أشجاننا لنخفف من الثقل الذي بـــداخلنا، وبعد قليل نستأنف وقوفنا من جديد، النهار لا يزال طويلًا ممتدًا أمامنا، ألا ترى قرص الشمس كيف يتربع وسط السماء. سالم:

هل سوف تستمران في تقليب صفحات كتاب الذكريات، وتقرآن معا كل ما كتب عليه؟ عصام:

بل نمرر أيدينا على جرح الأيام الغائر، دون أن ننسى- باقي البصمات الأخرى.

-وكيف وجدتماه؟ أتمنى أن يكون قد تماثل للشفاء.

-للأسف يا صديقي لا يزال ينزف وبغزارة، وما أظنه يتوقف يومًا، الجرح عميق يا أخي، الجرح في الوطن، والدم سقى الأرض، والنبات تغذى من الجرح وستأكله الأجيال اللاحقة، ستأكل طعاماً سقته دماء الأبرياء، نحن قوم نتغذى على دماء بعضنا من غير أن تكون لنا يد في ذلك.
سالم:

- ما هذا النهر من الدماء؟ ظننتك دعوتنا إلى فسحة للراحة أو لتعرض علينا أمرًا وقد أعجبتني البداية التي كانت دعوة لتوفير المال، والاشتغال بعدها بالتجارة، لكنكما عرجتما سريعًا للنبش في جروحكما من جديد، دعوا الأيام تتولاها، فهي كفيلة بأن تضمدها، وسوف تشفى بإذن الله.

-كيف تشفى ولا أحد يمدها بالدواء؟ كيف تشفى يا أخي ولا يد تمتد لها بالضمادة؟ كيف تشفى بعدما صار شعبنا لاجئًا في كل البلاد؟ و مات الكثير منّا على الطرقات، والبعض تلقفته بطون الأسماك، والبعض لا يزال عالقًا على الحدود والمعابر ينتظر ماذا تفعل به الأقدار، والبعض ينام تحت الأنقاض، والبعض مات من البرد في المخيمات على الحدود ... نحن يا أخي لم نعد شعبًا، عدنا بقايا شعب كان اسمه الشام.

والله أنا لا أفهم كثيرًا مما تقوله، كل ما أفهمه أنه عليّ أن أجد ما أسد به رمقي عندما أحس بالجوع يمزق أحشائي، وأمد باقي أفراد أسرتي، أنا يا أخي حرمني الفقر من أبسط حقوقي؛ لم أدخل المدرسة إلا في السنتين الأوليتين من التعليم، ووالدَيَّ لا يفقهان شيئًا عن القراءة والكتابة، كل همهما هو إيجاد اللقمة. باختصار أستطيع قراءة بعض الكلمات بالعربية، ولكنني لا أعرف كيف أنسج كلامًا كالذي تقوله أنت، ولا أفهم كثيرًا مما ترمي إليه، كل ما

أعرفه يا أخي أني وجدت نفســـــــي الابن الوحيد لأسرة غارقة في وحل الفقر، أب طريح الفراش خانته صــحته باكــرًا يعاني من ضيق في التنفس، وأم لا حول لها ولا قوة تقضـــي اليوم معه في غرفة على سطح البيت تناوله الماء مرة، والأكل أخرى، مصحوبًا بالشتـــائم التي تتفنن في صــياغتها بجميع ألوان الذل، وقارورة الدواء التي تبخل بها عليه في أوقات كثيرة كي لا تفرغ بسـرعة لأنها تخاف على القدر القليل من الدراهم التي بحوزتها أكثر من خوفها على صــحته التي تتدهور باســتمرار. صــحيح ملامحي كما يقولون عني أنها تشــي بالحدة والتحفز مع أنني والله طيب القلب، كل ما في الأمر أني أتظاهر بالقوة لأدافع عن نفســي في حالة تعرضي لأي هجوم، الشارع عَلَّمَني كيف أكون حَذِرًا، علمني أن لا أثق في أحد، أنا لم أتعلم في المدرســة إلا ســنتين كما أخبرتكما، ورحلتي في الشــارع بدأت منذ عدة سنوات حتى أنني لا أذكر طفولتي، تجاوزت المرحلة بسرعة، أجل تجاوزتها لأن الفقر لم يمهلني كما لم يمهل غيري من الفقراء، لم يعطني فرصــة لألعب وأتعلم كباقي الصــغار الذين ظروفهم أحســن من ظروفي. عندما خرجت أول مرة لبيع المناديل، كان وقتها عمري لا يتجاوز

تسع سنوات أذكر أني عدت يومها وبجوزتي القليل من المال رأيت الفرحة في عيون والديَّ أدركت أنني وضعت رجلي على الموقع الصحيح قررت أن أعود إليهما في اليوم التالي بأكثر من ذلك وهكذا كل يوم، والدتي المسكينة رغم جهلها تقول لي باستمرار:

-سيأتي عليك يوم تصبح فيه شابًا قويًا، وتنفعك هذه التجارة رغم بساطتها وتطورها إلى الأحسن. والدَيَّ يقضيان اليوم في المناوشات، واللوم، والعتاب، وكلام لا نفع يرجى منه، خا صة بعدما أ صبحت والدتي بدورها لا تقوى على العمل في البيوت التي أفنت فيها سنوات عمرها بسبب صحتها التي أصبحت عليلة، وامتناعها عن زيارة الطبيب كي لا تشتري الدواء تكتفي بشرب الأعشاب دون الانتباه إلى أضرارها. قدري أني الابن الوحيد لعائلة كهذه، وعليّ أن أبرّ بأبويّ وآتي لهما بما يسدان به الرمق، جربت في الماضي الا شتغال في ورشات للنجارة، وأخرى لإ صلاح السيارات بهدف أن أتعلم صنعة تنفعني في مستقبل الأيام، وكلما اشتغلت أسبوعًا أو أسبوعين كنت أطلب بعدها الأجرة من صاحب الورشة عندما أراه يدفع لباقي

العاملين معه، يماطل ويبدأ في التسويف، وعندما أصرّ وأخبره أنني أشتغل لأعيل والديَّ يزجرني ويرمي لي ببعض الدريهمات، وهو يقول:

ألا يكفي أني قبلت بتشغيلك رغم كونك قاصرًا، هيا اغرب عن وجهي، ولا تعد إلى هنا ثانية. لست أدري لماذا منعوا العمل على الأطفال، ألا يعرفون أن هناك فئة محرومة مثلنا، أم ترانا حثالة القوم لا يعبأون بنا، ولا يهمهم حالنا وما نعاني منه. لم أجد غير بيع مناديل الورق بدل التسول لأنهم لن يصدقوا بأية حال من الأحوال حكايتي، ولا وقت لديهم لسماع تفاصيلها، وإن سمعوها فحكاية الفقراء لا تختلف من واحد إلى آخر في كل مكان وزمان، وقد اختلط الحابل بالنابل كما يقولون، من بمقدوره أن يفرق بين المحتاج فعلًا من المتحايل؟ الجميع يمتهن التسول، وهذا ما جعل الناس يعرضون عن إعطاء المحتاج ومد يد المساعدة إليه. ومن تجده يقدم لهم شيئًا؛ إما رياء أو عطفًا ... أما عن الغربة؛ فأنا غريب مثلكما، وربما غربتي أشد من غربتكما، أنا غريب رغم انتمائي لبلدي، ووجودي بين أهلي وناسي وأتكلم لغتي وأفهم الجميع ويفهمني، ولكن

ما جدوى كل هذا إذا لم تجد في كل هؤلاء سندًا ودعمًا؟ ما فائدة هذا الانتماء، وأنت تشـــعر أنه قد تم اجتثاثك من تربة وطنك كأنك لم تعد تحســـب عليه؟ ليس لك مقعد في المدرسة، ولا لوالدك سرير في مستشفى، ولا تأمين على المرض، ولا مكان صـــحي تنام فيه مرتاح البال، ولا كرامة لك كإنســـان، تداس كرامتك يوميًا تحت نظرات الاحتقار وشتيمة من هذا أو ذاك. لم يتساءل أحدهم مرة هل نعشق بيع مناديل الورق؟ هل نرضى بالجري من ســـيارة إلى أخرى؟ هل لا نتعب من ملاحقة ضـــوء إشـــارة المرور، وترقب متى يكون أحمر؟ نعم غريب لأني لم أعش كباقي الصغار، ولم أذهب إلى المدرسة ولم، ولم ... أشياء كثيرة لم أفعلها، وفرص كثيرة ضاعت مني في زحمة الحياة وأنا أتنقل من شارع إلى آخر، ومن سيارة لأخرى.

****

كان كل واحد منهم على وعي بوضعه، ويدرك جيدًا المفارقات التي اجتمعت في مكان واحد؛ عربي من سوريا، مغربي من شمال إفريقيا وإفريقي من نيجيريا، وأناس يعبرون من الصباح إلى المساء على اختلاف أعمارهم وألوانهم ولغتهم وانتماءاتهم الجنسية والعرقية والسياسية والدينية ... ولا أحد ينظر بعين الإنسانية إليهم، تستمر حياتهم على الرصيف رغم الإهانة التي يتعرضون لها على مدار اليوم، وعلى امتداد الأيام ليس أمامهم خيار إلا الصبر، هكذا كان ينتهي بهم الحديث كلما فكروا في وضعهم أو تعرض فيها أحدهم لشتيمة أو إهانة من أي نوع.

كان عصام أكثرهم معرفة، وكان يحز في نفسه كثيرًا معاملة البعض، كما أنه كان كثير السؤال، أحيانًا جهرًا وغالبًا ما يقتصر على سؤال نفسه فتجده يحلل في صمت ويعلل، ويجد الأعذار أحيانًا أخرى لهذا وذاك، وأحيانًا كثيرة يسخط على الظروف التي رمت به هذه الرمية ليتحول بين عشية وضحاها من ابن عز إلى متسول على رصيف بلد

يأويه مع أهله، يتساءل واضعًا السؤال الذي كان يصر على طرحه مرارًا:

ـ أين هو عابر السبيل؟

نحن عابرو سبيل، ويعود ليقول ربما كنا نغالط أنفسنا نحن مقيمون ما يزيد على الأربع سنوات، والله يعلم إلى متى ستستمر إقامتنا في هذا البلد الذي آوانا، صحيح أننا لاجئون، ولكن حالنا لا يتغير ونمد أيدينا طوال اليوم. ويعود ليقول:

ـ ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام:

" اليد العليا خير من اليد السفلى ". لماذا إذن نرضى لأنفسنا أن تكون أيدينا دائمًا في الأسفل؟ لا بد من البحث بجدية عن الخلاص، التسول ليس حلًا. هكذا كان يقول، ويصر على أن يسمعه صديقاه. كان عصام وسيمًا وهادئًا رغم البركان الذي في أعماقه، يحاول جادًا أن يكون عقل المجموعة، والإفريقي عضلاتها، والمغربي مخطط وراسم لكل الخطوط، أعمارهم لا تتجاوز السابعة عشرة، وإن كان عصام أصغرهم، مما

جعله يحظى بعنايـــــة فائقة رغم طول قامته، كما كان سريع الغضـــب رغم ضــغ طه المســتمر على نفســـه. تجده كلما رمقه أحدهم بنظرة ازدراء أو رماه بنظرة غاضبة تسلل منكســـرًا وعاد مطأطئ الرأس وجلس في مكانه، ودخل في صــمته لفترة طويلة لا يكلم أحدًا، بعد مرور الأيام تعود عليه صــاحباه، وبدآ يفهمان حالته الداخلية، كلما أغلق عليه قضــبان زنزانته كما كان ينعتها، أو ابتعد عنهما كان يحز ذلك في سالم فيعمل جاهدًا وبشتى الوسائل على إخراجه من حالة الصــمت والعزلة؛ مرة بحركة من حركاته الاســتعراضــية، ومرة يقلد فيها اللهجة الســورية فيضطر وقتها عصام للضحك بأعلى صوته يُخرج مع تلك الضحكة البريئة كل الغضب ويعود إليه نشاطه من جديد. أما عن (مامادو) لقد كان في البداية لا يفهم كل الكلام الجارح الذي يتلقاه من أفواه الناس، لكنه كان يفهم من حركات أعينهم وملامح وجوههم أنهم أســاءوا إليه، فكان يكتفي بإشاحة وجهه عنهم وفي عينيه بريق وكأنه يوشك أن ينفجر باكيًا، لكنه لم يكن يفعل، بالعكس تمامًا كان يتجلد ويصــبر، ربما كان يفعلها عندما يكون وحيدًا بعيدًا عن الأنظار، لقد كان يتظاهر بالقوة وربما ذلك من

بين الدروس التي تلقاها ممن سبقوه؛ عدم الاستسلام، وعدم الغضب، والصبر إلى أبعد الحدود. نعم ليس أمامه من حل إلا الصبر لأنه في بلد غير بلده، وفي أية لحظة يمكن أن يلقى به خارج الحدود. كانت رحلته الشاقة قبل أن يطأ تراب المغرب دائمًا تعرض أمامه بمخاوفها ومعاناتها وجوعها وعطشها ... بكل الفقد الذي كان يمتلئ به كلما ابتعد خطوة عن بلده وأهله.

اليوم رغم ما يتعرض له من نظرات وبالرغم من كل الإهانات، وبالرغم من تلك الجراح التي لا يتوقف نزيفها في داخله يرى نفسه من موقعه الحالي يطأ أرض الجنة مقارنة مع ما عاشه من قبل.

أما بعدما بدأ يتعلم القليل من العربية كانت الشتيمة الوحيدة التي تتكرر على مسامعه على امتداد اليوم هي؛ لونه وبلده اللذان ينعت بهما.

يتساءل مرارًا:

ترى هل للإنسان دور في لونه؟

أو مكان ولادته؟

ولماذا يقولون عن العنصرية أنه تم القضاء عليها، ولم يعد لها وجود؟

بالعكس لقد استوطنت فكرة الناس، وتغلغلت في أعماقهم، كيف ينعت الإنسان بلونه في بلد يحارب دينه التفرقة بين الناس بسبب اللون؟

لا فرق بين الإنسان إلا بالتقوى، هذا ما أخبره به صديقه عصام في حديث بينهما، كيف يخالفون شريعتهم؟ والتوزيع الجغرافي؛ إفريقي، هذه أيضًا تعني صفة اللون الأسود، أكيد هؤلاء يبتعدون قليلًا عن اللون ربما يبتعدون عن العنصرية، ولكن تكون عنصرية العرق واردة، أليس المغرب منتميًا جغرافيًا إلى إفريقيا؟ أكيد هم يقصدون بها اللون.

وما ذنبنا نحن إذا كانت الطبيعة صبغتنا بلون السواد بسبب البيئة التي وجدنا فيها؟ لو علموا سبب رحيلنا عن أراضينا لما ذلونا بكلماتهم، لقالوا يكفيهم بعدهم عن أوطانهم، يكفيهم ابتعادهم

عن ذويهم، يكفيهم عدم انتمائهم لمكان معين، يكفيهم التشرد الذي يعانون منه...

****

رأى سالم حزن صاحبه يكبر مع مرور الأيام لم ير يومًا بريقًا من الأمل في نسيانه لوضعه، وحالته كمهاجر سوري فقد الأهل والوطن نظر إليه مليًا، وقال:

-لا بد أن تنسى الموضوع جملة يا عصام، فقد مر على تهجيركم ما يفوق الأربع سنوات، لا بد من تسليمك بالأمر كل شيء انتهى.

أجل يا أخي عليك أن تندمج مع واقعك الجديد شئت ذلك أم أبيت، علينا جميعًا أن نبدأ بجد حياة جديدة. جاء صوت عصام هزيلًا:

-أنت تعلم أن ذلك صعب بل مستحيل، اسأل صديقنا مامادو هل بإمكانه أن ينسى يومًا أصله، وهل بمقدوره الاندماج كليًا في الحياة الجديدة؟ ربما الأمر يختلف بيننا فهو كلما فكر في بلده مثلت أمامه الصحراء الممتدة، وكأن لا نهاية لها، ممتدة كالبحر في حجمه و مخاطره تلك التي قطعها و نجا من الموت فوق ر ما لها. مامادو:

-لا يا أخي، أنا لا أفكر في كل ذلك، بل أفكر في تلك الحروب الأهلية التي لا تهدأ إلا لتبدأ من جديد، أفكر في

والدي وكيف قضـــى مقتولًا من غير أن يقتص أحد من الجناة، دمه لم يجف ونحن نغادر خوفًا على حياتنا، كم مرة نـــدمت على المغادرة واعتبرت نفســـي جبانًا وأخي الأكبر مني أكثر جبنًا، ولكن ما حيلتنا ونحن صـغار لا نقوى على شيء؟ و مما زاد من خوفنا لهفة والدتي علينا و تأكيدها مرارًا أنهم لن يتركونا قبل أن يقتلونا، لا يريدون لأحد أن يثير لهم أي نوع من المشـاكل، أما عن والدتي فقد أخبرتنا المسـكينة أنها سـتعود إلى بيت خالتي في قرية بعيدة، وتقضـــــي عندها بقية أيام عمرها. والدتي سـطرت حياتنا، ودفعتنا للهرب، كما أنها سـترحل بدورها لم يعد يهمها أي شيء غير أن تضـمن لنا الحياة بعيدًا عن أولئك القتلة حتى وإن حرمت من رؤيتنا بقية العمر.

-وأنا يا أخي لا يزال التهجير في بلدي قائمًا وفي أبشـع الصـور، ولا زالت الحرب مشـتعلة تبيد كل يوم عددًا من الأبرياء، ومع ذلك لن أنسـى موطني، كيف لي أن أنسـى جذوري؟ كيف لي أن أنسـى من خلفتهم ورائي؟ كيف لي أن أنســـى أبي الذي لا نعرف عنه شيئًا؟ أبي الذي لم يعد

ليلتها، ليتني كنت مثلك أعلم مصـــيره لبكيته بحرقة وانتهى الأمر، لكني كلما خلوت مع نفسـي أحس باشتياق له، أبكي وجعه، أبكي محنته، وربما كان لا يزال يبحث عنا ولا يعرف بدوره لنا سبيلًا، وربما كان يقف بدوره على رصـــيف آخر في بلد آخر، وربما كان معي في نفس البلد، واختلفنا في شـــوارع المدينة نفســـها، وقد لا يتعرف على شكلي لقد كبرت وتغير شكلي عن الماضي. يبدو أن عصام فقد الســـيطرة على مشـــاعره، ويكاد ينفجر باكيًا وهو يتحدث عن والده. عاد صـــديقهما ســـالم ليمزح كعادته ويغير مجرى الموضوع كلما رأى السحابـــة تكاد تنفجر ويرسم البسمة على الوجوه من جديد. صحيح ما يقال، أن أكثر الناس حزنًا ووجعًا هم من يملكون القدرة على إدخال السرور على الآخرين، إنهم يرتدون قناع السخرية بين الحين والآخر ليســتطيعوا بذلك إكمال رحلة الشــقاء والمتاعب وهذا هو الحال مع سالم. أضاف عصام:

-الجميع يطلب مني أن أنسى، وكيف يمكنني أن أنسى؟ !!

كي يتسـنى لي أن أنســـــى؟ عليّ أن أفرغ ذاكرتي من كل الأشـياء التي امتلأت بها، أو أصـبح شـخصًـا آخر غيري، كيف أنسـى وأنا أحمل ملامح جدي؟

كيف أنســـــى وأنا أحمل تلك الذاكرة التي ملأت جميع ملفاتها بتاريخ بلدي وعائلتي، وتلك الصـور عن التهجير التي تسكنني وترفض مغادرة ناظري؟

كيف أنسـى وأنا لا زلت أستيقظ كل صباح ورائحة الورد التي كانت تملأ حديقتنا تعبق المكان من حولي؟

كيف أنسـى والحنين يشدني كل حين لألعب بدراجتي الحمراء التي تركتها يومها مركونة هناك؟

كيف أنســى؟ وأنا لا زلت أرى نفســي ألعب فوقها، ولا أنتبه إلا حين يصدمني جدار الغرفة الصغيرة التي تأويني مع والدتي وإخوتي.

كيف أنســـــى؟ وأنا أرى والدتي أرملة تبكي كل حين من غير أن تدفن زوجها.

كيف أنسـى وأنا أراها تلتف بالسواد منذ أربع سنوات؟

كل شيء يقول لي أنت عصام ابن حلب، أنت عصام اللاجئ السوري؛ لهجتي، لون عيني، بشرتي، نظرات الجميع إلي. تنهد بعدها في ضيق، وهو يرسل نظره بعيدًا. بقي سالم حائرًا يقلب نظراته بين صديقيه قبل أن ينتبه إلى صوت محرك سيارة تتوقف عند إشارة الضوء الأحمر من جديد فيعود مسرعًا لبيع المناديل بخفة مارًا بأكبر عدد من السيارات. عاد إليهما بعدما انتهت ثواني الضوء الأحمر، لاحظ الوجوم المخيم على الوجوه، وخاصة على وجه عصام بينما بدا له وجه الآخر طبيعيًا، ربما ملامحه غير معبرة بالشكل الكافي؛ فهو يتسم بالجدية الدائمة، نادرًا ما تبدو لمسة السرور على ملامحه كأنه يحتفظ بقناع البؤس ونظرة الحزن العميقة من لحظة عثوره على جثة والده مقتولًا. أحس سالم أن الزمن توقف بكل واحد منها عند لحظة مغادرة أوطانهما مجبرين تاركين كل شيء خلفهما؛ الأحلام، الأماني، الوطن، الأهل، الأصدقاء، الذكريات... عندما أدرك ما يختلج في أعماقهما وجد أنه لا بد من التدخل بكلامه الذي رغم ما فيه من المرارة إلا أن روحه المرحة تجعله يضفي عليه نوعًا من السخرية مصحوبة بحركات مما يضطر الرفاق إلى العودة للضحك من جديد:

-يبدو أنكما توغلتما من جديد في وحل أوطانكما، ماذا عن حال أقدامكما لا بد أنكما غصتما عميقًا؟

أكان المطر هذه المرة غزيرًا، وأنتما تعبران تلك الأحداث؟ لماذا توقفتما بهذا الشكل، ولم تبرحا المكان؟

هيا عودا إلى حيث نحن لطلب الرزق كما شاء الله لنا قبل أن يمضي اليوم مسرعًا.

-بل كما شاء الأوغـــاد أن يكون لنا، أما الله تعالى فقد رزقنا من فضله الشيء الكثير.

-لا، لا يا صـديقي أنا نبهتكما قبل اليوم أني مسـؤول عن أب مريض لم تعد تسعفه صحته على العمل، وأم تعبت بما فيه الكفاية، ولم يبق أمامهما مصـــدر للرزق غيري. إذا كنتما ستدخلان في كلام له علاقة بالسيا سة أو شيء من هذا القبيل ســوف أنتظر قرب إشـــارة المرور إلى حين تنتهيان من نقاشاتكما.

-السـياسـة يا صـديقي لعبة الكبار ونحن مجرد بيادق، لا نفهم ما يحاك حولنا، نحن نسحق كالحشـرات تحت الأرجل دون رحمة، ولا أحد يلتفت إلينا كل همنا هو لقمة العيش

ومكان آمن نعود إليه، هل تحسب ما يقال في نشرات الأخبار له علاقة بالسياسة؟ كلا يا صديقي؛ السياسة لها أماكن خاصة بها وأناس كذلك، وما نسمعه إلا علك يلقونه للناس ليمضغوا فيه على امتداد يومهم وينشغلوا به ليخلو لهم بعد ذلك الجو للعبتهم القذرة في هدوء تام دون إزعاج من أحد. سالم:

-حسنًا، استمِعا إلي جيّدًا؛ سبق أن أخبرتماني عن حالتكما وإن لم تخبراني فهي باديـة للعيان يكفي بعدكما من موطنيكما الأصليين. كما أنني أخبرتكما سابقًا كوني لم أعش حتى تلك الطفولة التي تكلمتما عنها، منذ بدأت أعي الأشياء وأنا أسمع والدتي تتكلم عن حاجتها للمال، وبحثها الدائم والمضني عنه لشراء شمعة تنير بها عتمة الغرفة اليتيمة التي تضمنا نحن الثلاثة بعدما يغيب آخر الشفق الأحمر من السماء، ولم يعد بإمكاننا التعرف على ملامح بعضنا البعض خوفًا عليها أن تذوب بسرعة، وبمجرد ما نجلس قليلًا تطفئها بحجة الاحتفاظ بالجزء المتبقي منها للغد، لم أتمكن يومًا من مراجعة دروسي كانت والدتي تقول لي باستمرار في نوع من الحسرة:

-المدرسة ليست لأمثالنا، المدرسة لمن ظروفهم جيدة، كان الإحباط يتبعني في كل الخطوات التي كنت أخطوها، كانت تسقي الماء الذي نستعمله من بيوت الجيران الذين كانوا يمتنعون في أوقات كثيرة عن مدِّها به، ويغلقون الباب في وجهها، وتعود المسكينة حزينة تلعن الظروف التي جعلتها تمد يدها لأمثالهم لأنه لم يكن بإمكاننا دفع ثمن فاتورة الماء. كنت وقتها صغيرًا لا أقوى على فعل شيء، اليوم والدتي فخورة بي لا تعلم مدى معاناتي لكنها تدخر من المال الذي أعود به كل مساء قدر الإمكان، تقول لي باستمرار: لا يمكن أن تكرر حياة البؤس التي عشناها. توقف فجأة وهو يرى الوجوم مخيمًا على الوجوه حاول أن يقفز على باقي قصته، ليقول:

- ما رأيكما أن نقوم عشية اليوم بجولة في (كورنيش المدينة) نأكل " سندويش " ونبتعد قليلًا عن جو الكآبة والعمل، وعن نظرات الشفقة والاحتقار. مامادو:

-معذرة يا رفاقي، لن أتمكن من مصاحبتكما في جولتكما، أنا لا أمانع ولكني ملزم بدفع قدر من المال لرئيسنا يوميًا.

-رئيسكم، كيف ذلك؟ قال سالم مستغربًا.
-تعلمون أننا نسكن بيوتًا مهجورة في ضواحي المدينة بجوار الغابة المطلة عليها، وهناك يقوم مجموعة من الأشخاص بتنظيم سير الحياة داخل مخيمنا.

-هل لكم مخيم؟

-لا، ولكن هناك مجموعة من الأماكن يشرف على تسييرها مجموعة من العناصر كما ذكرت وقد وضعت لها نظامًا خاصًا، وعلى باقي المهاجرين السير عليه، هم يدبرون لنا المأوى والأكل والأمان وأيضًا يدبرون صفقات الهجرة المنظمة عبر البحر لمن توفر له المال الكافي ليغادر، كما يخططون لمن يدخل مدينة مليلية المجاورة، لهم اتصالاتهم الخاصة، يُعْتَبَرون النظام بالنسبة للمجموعة ونحن بقية الشعب علينا بتنفيذ الأوامر.

سالم:

-لا تحمل همًّا للنقود سنتدبر المبلغ المطلوب منك، لن نتركك وحدك، الوقت لا يزال أمامنا ممتدًا، وإذا لم يتوفر المبلغ المطلوب سنتولى الأمر، أعدك بذلك، ولن نتركك وحدك.

-وماذا لو رآني أحدهم أجوب شارع الكورنيش؟

سالم:

-أخبرهم أنك ذهبت لنفس الغرض ـ التسول ـ

-أتريدني أن أكذب، ألا تعلم أنه يتم توزيعنا في أماكن خاصة بنا، وأن للكورنيش مجموعته. رئيسنا من وضعنا في أماكننا، ولا يحق لنا تغييرها إلا بأمر منه، كي لا نجتمع في مكان واحد ونترك باقي الأمكنة شاغرة، كما أنه يعمل على إبعاد كل اثنين تربط بينهما قرابة من أي نوع كي لا يقضيا الوقت في الحديث وينشغلا عن العمل.

عصام متسائلًا:

ـ وما العمل إذن؟

اذهبا معًا، لا بأس بذلك سأنتظر عودتكما، ربما في المرة القادمة أرافقكما، عليّ أن أطلب الإذن من المسؤول كي لا أتعرض لأسئلته التي تحمل في طياتها الكثير من التأنيب، وأقع في حرج وأنا في غنى عن كل ذلك.

سالم:

-إذن سيصعب عليك الدخول معنا في مشروع المستقبل ما دمت تعمل تحت إمرة رئيسكم.
-في الحقيقة راقتني فكرة عصام، ولكن قبل ذلك يلزمني أن أتخلى كليًا عن المبلغ الذي وفرته لأنه بحوزتهم، ولست أدري بعدها هل سيتركونني وشأني؟ بصراحة أخي الأكبر تمكن من المغادرة وهو الآن في مدينة مليلية ينتظر حصوله على أوراق الإقامة ليتمكن من دخول أوروبا ويحقق بذلك حلمه، على أمل أن يعود يومًا ما على متن الطائرة لزيارة والدتي أو يبعث في طلبها إلى هناك، وربما كان يفكر في القصاص من الجناة، إنه كتوم ولا يتكلم كثيرًا عما يدور في رأسه لكن نظرة الحزن لا تفارقه، ولا أخفيكم أمرًا؛ منذ غادر أخي وأنا أحس بالوحدة داخل المجموعة رغم حسن معاملة الجميع لأن وجوده إلى جانبي

كان يقويني. فعلًا تواجده في مليلية كَبُرَ معه الأمل بجمع شمل العائلة من جديد، ولكن إحساس الخوف يلازمني، أخاف إن لم أتمكن يومًا من تخطي بوابة مليلية، لأني أخاف أن تفشل محاولتي في اللحاق به كما فشلت عدة محاولات سابقة لأناس سبقونا ومنهم من قضى على الأسلاك الكهربائية المتواجدة على الحدود التي تفصل مليلية عن مدينة الناظور.

توقف مامادو عن الكلام، وقد شرد بعيدًا كأنه يبحث عن جميع العراقيل التي يمكن أن تحول دون وصوله سالما لمعانقة أخيه من جديد.

****

نزار بعدما اطمأن إلى وصـــول زوجته وأبنائه ســـالمين إلى المغرب كما تابع باقي أخبار العائلة الكبيرة والجيران خاصـــة النســـاء والأطفال منهم. بقي لفترة صـــامدًا مع مجموعة من الأهالي لكن الموت كان يتصيدهم الواحد تلو الآخر أدرك أن شرارة الحرب التي لا تخطئ وجهتها قد يكون بدوره ضحيتها مع من بقي منهم، لم يجد وقتها بدًا من التفكير في الرحيل كما فعل آخرون لكن عليه أن يـبـحـث عـن الســـبـل لمـغـادرة الـوطـن. مرت الأيام ثقيلة لا شيء غير الموت والدمار، بعد مرور مدة من الزمن كانت خلالها الحرب قد حولت الحي إلى ركام، تسلل مع مجموعة من الأصدقاء يريد أن يطمئن على من رفض الرحيل لمعرفة ما حل بهم.

يومها كانت رحى الحرب تدور بعيدًا عن المنطقة اختار الوقت صـــباحًا، وقف طويلًا أما ركام المنازل كان يتعرف عليها من موقعها أو من بـاب لا يزال بالقرب منها، ذرفت عيناه دموعًا، لم يبك يومها البيوت كان قلبه ينزف حســرة على من كان يســكنها ويتســاءل إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة أم انتشلت جثثهم من تحت الأنقاض بعدما اختفت

معالم الحي وبقيت بعض المنازل شـــاهدة عليه تقدم بخطوات يشـــدها الخوف إلى الوراء لم يكن يريد أن يرى بيت العائلة عبارة عن ركام من الحجارة، لم يكن يريد أن يرى صـــورة قد لا تغادر ذاكرته ما بقي على قيد الحياة، وقد تمحى كل الصور القديمة وتظل وحدها تشغل الذاكرة. لاحظ رفيقه بطء خطواته علم بالخوف الذي يعتمل في داخلـه والعتمـة التي ملأت الفضـــاء من حوله، أحس بالضـــجر لصـــمته الذي طال مد يده إلى كتفه، وقال:

-هيا نعد أدراجنا ليس هنا ما يشدنا لرؤيته. كانت كلمات صـــاحبه جرسًـــا أخرجه من توهانه وشروده، وأجاب:

ـــ لا بد من إكمال المسير، ما أدراني إن كنت سأعود إلى المكان يومًا .

أنا نزار يا أخي ابن حلب، وابن أكبر تاجر عرفه هذا الحي كتب علي أن أُقف على أنقاضه بعدما كان عامرًا بالحياة، يا إلهي أي حزن هذا الذي ملأني وأي قلب سيسع هذا الكم من الأوجاع وكل هذه المذلة والهوان اللتين ابتليت بهما، وامتلأت بهما النفس أينما وليت وجهي بعد اليوم ســـوف أرى هذا الركام.

-لابد أن نعود يومًا إلى أرضنا بعدما تضع الحرب أوزارها لبنائها من جديد.

لا بد أنك تحلم يا أخي ومن أين لنا بالناس الذين دفنوا تحتها؟ والذين انتشلوهم أشلاء و أولئك الذين غرقوا في البحر، ومن لقوا حتفهم على الطرقات ومن قضوا تحت الجليد على الحدود. آه يا أخي، قل للزمن ارجع يا زمن. انهمرت دموعه بسخاء، بدأ شريط حياته الماضية وسط أهله وجيرانه يعرض أمامه وقد هيج هذا الشريط مشاعره بكى حاله وحال أهله. أحس صاحبه أنه سينهار لقد وصل أقصى ما يصيب الإنسان من الحزن واليأس فقد الأهل والوطن، ولم يبق أمامه سوى الرحيل على متن السفينة التي من المفروض أن تُقلع ليلًا. كان صاحبه يرقبه برأفة ورقة لم يكن أقل منه وجعًا لكنه كان يعلم أن أسرته الصغيرة في المهجر تعيش حياتها بعيدًا عن ويلات الحرب.

****

أحس سالم بنوع من الاطمئنان لحاله رغم الفقر والهشاشة التي يعيش فيها؛ فهو حر في وطنه بالرغم من تحمله المسؤولية منذ سن مبكرة إلا أنه يفعل ما يحلو له، ويكفيه أنه ينام مطمئنًا بين أربعة جدران نومًا عميقًا رغم هشاشة المكان الذي يأويه مع والديه، لقد اعتاد أن يلقي بجسمه بعد التعب الذي يحسه من يومه الطويل متنقلًا كعصفور جريح من سيارة إلى أخرى ينام ويحلق في أحلامه عاليًا؛ يأكل في ليله ما يحلو له ويرتدي أجمل الملابس، كما كان يرى نفسه داخل إحدى السيارات الجميلة التي تعبر بجواره، وأحيانًا يحلم بوالديه إلى جواره وهو يقود السيارة وضحكاتهم ترتفع في الجو، كان إحساس السعادة يملأه في أحلامه، وبعدما يستيقظ من نومه على صياح والدته يعود إلى واقعه البئيس من جديد يقطب جبينه قليلًا وهو يردد: ليتني استغرقت في النوم أكثر. كان يغذي آماله من أحلامه التي تكبر مع الأيام، ويأمل في مستقبل قد يحمل له بين أيامه بعض ما كان يراه في حلمه، كان إيمانه بالمعجزات كبيرًا، وأن الحظ قد يخبئ له فرصة تنتشله وعائلته من الفقر، كثيرًا ما سمع عن أناس أصبحوا أغنياء، وقد يكون واحدًا منهم، ولم لا؟

لذلك يقوم من مكانه مزودًا بطاقة من النشـــاط، ويخرج مسرعًا دون تباطؤ أو كسل.

أنا يـــا أصدقائي لم أرتبط بأي مكان، كل الأمكنة أحاول التأقلم معها كي أعيش وأنعم بالقليل من الاطمئنان، رغم أني لا أحس بالأمان في أي منها لأني دائمًا على هامش هذا المجتمع، والجميع ينظر إليّ من أعلى كأنهم خيروني قبل اليوم عن نوع الحياة التي أرضاها لنفســـي واخترت هذه الحياة التي أحياها، كذلك الأمر بالنسبة للسكن في كل مرة تخبرني والدتي أننا سـنغير الغرفة التي نسـكنها، لكن السـطح كان دائمًا هو المكان الذي توجد فيه الغرفة التي تضـمنا، صـحيح نسـتفيد كثيرًا من الشـمس التي تمدنا بتلك الفوائد التي يتحدثون عنها، ونعوض بها ما ينقصـنا من الفيتامينات، ولكن في فصل الشتاء لا أستطيع مهما قلت أن أصـف لكم البرد الذي أحسـه خاصـة عندما كنت صـغيرًا، كنت أخاف من عويل الرياح، وزمهرير الشتاء، كان يخيل إليّ وأنا أستمع إلى عويلها في ظلام الليل أنها تحاول أن تقتلع الباب من مكانه، وأن النافذة الوحيدة التي يتنفس منها البيت سـتقع على قمة رأسي. ليالي كثيرة

قضيتها وأنا أجمع رجلي بين ذراعي من شدة الخوف والبرد، وعيناي شاخصتان في الظلام، وبين الحين والآخر يصلني شـــخير والديّ اللذين يغطان في النوم من كثرة التعب في يومهما، قليلًا ما ســـكنّا في غرفة في الطابق الأرضي أو الطابق الأول، لأننا وقتها نقتســـم المكان مع باقي الجيران من حالهم ليس بأحسن حال من حالنا، ووالدتي لم تحتمل يومًا ضجيج أبنائهم فتتعارك باستمرار وتغير السكن، لم أرتح مرة لمكان ولا لغرفة بعينها ولا لحي من الأحياء التي ســـكناها كنت باســـتمرار أترقب الرحيل، وأحيانًا من أول ليلة نقضيها هناك أسمع شكوى والدتي من هذه الجارة أو من تلك، وأدرك أنها تنوي تغيير الســـكن، فكيف أحب أماكن لم أجد فيها راحتي، وكيف أتعلق بأمكنة لا أحد يحبني فيها؛ لا أصـــدقاء، ولا أهل، ولا حتى جيران تربطنا بهم قرابة السكن.

لكنني لم أنس يومًا الحي القديم، وإن كانت كل الأحياء التي سكنتها قديمة، هناك في الحي القديم عندي ذكريات من الســـنوات التي بدأت أعي فيها الأشـــياء لا يمكن أن تمحوها السنون مهما تقدم بي العمر، أذكر أيامًا كنت أظل

تحت الفراش اليتيم الذي كنا نملكه من شدة البرد خاصة وأن الغرفة تكون قد امتلأت بالرطوبة وتصـــدعت جدرانها فلا يصلها دفء الشمس صيفًا، ويستوطنها البرد أطول شـــهور الســـنة كما أني كنت أحس بالجوع يمزق أحشـــائي الصـــغيرة وأظـل أبكي دون توقف، ووالدتي منشـــغلة عني تقول أنها تهيئ الغذاء، أنا لم أتناول مرة وجبة كاملة أدفأت أمعائي حتى بعدما بدأت أشـــتغل، فوالدتي لا تزال تبخل علينا بالأ كل بحجة أنها تجمع (لدواير الزمن) تنتظر دومًا أن يدور الزمن إلى الأســـوأ لم تتفاءل يومًا وتقول؛ أن غدًا أمره بيد الله وتملأ بطوننا، وتشتري الدواء الكافي لها ولوالدي الذي لا حول له ولا قوة.

-أنا حقًا أنزعـــــج لأني لا أعرف من عائلتي إلا والديّ العاجزين وأحياناً أتضـــايق وأتســـاءل؛ ما ذنبي أنا؟ وهل جئت لهذه الحياة من أجل رعايتهما بعدما تمكن منهما المرض؟ إنهما كل عائلتي، وعندما أســـأل والدتي عن أخوالي تقول:

إنها لم تعد تعرف عنهما شيئًا بعدما غادرا القرية، وخرجا لطلب الرزق كانت يومها لا تزال صـــغيرة. أما عن والديها

فقد ما تا من وقت بعيد وتكفلت إ حدى خالاتها برعايتها، أما بالنسبة لوالدي فكان يتكلم بحسرة ويقول:
-إذا كنتَ قليل المال، وعديم الفائدة الجميع يتخلى عنك يعتبرون وجودك كعدمه، المال وحده من يصنع لك مكانًا حتى بين أقرب الناس إليك.

عصام يحاول بدوره إخراج سالم من المتاهة التي انطلق في ممرا تها، يعود لموضوع ا لجولة، و يقول لمامادو:
-ما رأيك أن تأخذ الورقة المالية اليوم وتسدد ما عليك من دين لرئيسك.

سالم يعود بدوره إلى موضوع الجولة، ويعقب:
-فكرة جيدة يا عصام، أنا من جهتي أتنازل عن حقي.
مامادو:

لا بأس، إذا كان لا بد من تواجدي بينكما فلماذا لا نذهب إلى مطعم قريب من هنا، ونطلب أكلاً، ونستريح قليلًا ونتحدث أثناء الأكل ونؤجل الفسحة إلى فرصة أخرى.

عصام:

ـ هذا حل وسط، لا مانع لدينا.

سالم:

-إذن إلى العمل، وبعد ذلك نخصص فترة للاستراحة والأكل.

****

ذهب الأصـدقاء الثلاثة كما اتفقوا إلى مطعم قريب منهم، تردد عصام في ولوج بابه الزجاجي بينما صاحبهم الإفريقي كان يمد خطوات متثاقلة وهو يلتفت ذات اليمين وذات اليسار، كان سالم قد دلف وبقي في انتظارهما، أومأ لعصام أن يد خل و بدأ يشـير بحركة من يده لما مادو كي يخف الخطى، استدار في مكانه على صوت النادل يقول له:

-ماذا تريد يا هذا؟

أشار له سالم بعدما جمع أصابعه ـ أي الأكل ـ

أجاب النادل للتو:

- عد بعد قليل، الآن نسـتقبل الزبائن، وإذا ما توفر لنا بقايا طعام سـنقدمه لك. قال عصـام الذي كان قد التحق بسالم:

-ما هذه الإهانة يا أخي؟ احمرت عينا سـالم، وبدأ يسـتعد لشـتمه غير أن عصـامًا أشـار له بالتريث، وقتها اكتفى بإخراج النقود من جيب سرواله، وقال له:

-نحن بدورنا زبائن وأنت عليك أن تخدمنا وإلا ...

قال النادل للتو:

-مرحبًا بكم هيا تفضلوا.

في هذه الأثناء كان رأس يطل من وراء (كونطوار)؛ كان رجلًا في الخمسين من عمره، وقد اكتسح الشيب جزءًا من شعره، بدا مبتسمًا شجع مامادو الذي كان يشاهد الموقف عن بعد لينضم إلى صديقيه. بينما سالم يسأل عصامًا عن المكان الذي سيجلسان فيه رأى عصام أن هناك بعض الموائد لا زالت تنتظر الزبائن اختار إحدى الموائد البعيدة عن الباب، ونظر إلى مامادو، وقال:

لا أظنك تمانع في الجلوس في ذاك الركن البعيد عن الباب؟ ابتسم مامادو، ولم يضف شيئًا، كان لا يزال يجد حرجًا في التكلم بعربية متكسرة رغم أنه في غالب الأوقات يفضل الكلام بها بدل الفرنسية التي يجيدها عصام بدوره، كي لا يحرجا سالمًا الذي لا يعرف من الفرنسية إلا صباح الخير وشكرًا ونعم ولا... طلبوا وجبة دسمة، وضحكوا كثيرًا أثناء الأكل، كانوا يضحكون كأنهم يفرغون الهموم مجتمعة ويكدسون مكانها أكلًا، باستثناء عصام الذي شَدَّتْ أنظاره نشرة الأخبار التي تعرض أمامه على الشاشة التي

كان يجلس مقابلًا لها لم يشـــأ أن يعكر عليهما صـــفو اللحظة لكن ملامحه ظهر عليها بعض الانقباض.

تساءل سالم:

-لماذا لا نكرر مثل هذه الوجبة مرة في الأسبوع؟

أجاب عصام:

-شرط أن يمر الرجل الكريم كل أســبوع، ضــحكوا كثيرًا لهذه الفكرة. قال مامادو:

-لقد أعجبتني الفكرة، في المرة القادمة نطلب أقل شيء لكي لا ندفع مبلغًا كبيرًا، ولا داعي للفسحة. تبادل كل من سالم وعصام النظرات، قرأ كل واحد ما أراده صاحبه، وقالا بصوت واحد:

-ونحن معك في الفكرة، ولن نذهب إلى الفســحة إذا كان الأمر يحرجك. اتجه ســالم بعد ذلك لدفع ثمن الوجبة، استقبله النادل مبتسمًا، وقال:

-ماذا تريد؟ قال سالم، وهو يشير إلى النقود: ـ جئت لأدفع ثمن الأكل، أليس الثمن هو كل ما يهمكم؟ أجاب النادل معتذرًا:

أنا آسف يا أخي لكنها الأوامر، وأنت تعلم كثرة المتسولين الذين يطرقون باب المطاعم من الصباح إلى المساء.

قال سالم:

-الحمد لله نحن فعلًا في حاجة إلى المال؛ لكننا نشقى ونأكل من عرق جبيننا، هيا تفضل.

رد النادل مبتسمًا:

-اليوم كنتم ضيوفًا في مطعمنا.

رد سالم مستغربًا:

-كيف ذلك؟ في البداية كنت تهم بطردنا، والآن تقول عكس ذلك، هيّا خذ النقود يا أخي، ودعنا نذهب لعملنا لا وقت لدينا للمزاح.

-أنا لا أمزح معكم، بل أنفذ تعليمات صاحب المطعم.

سالم:

-إذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن ندفع له ثمنًا آخر مقابل كرمه.

عاد عصام إلى جانب سالم عندما تأخر في اللحاق بهما، فأخبره بتفاصيل ما دار بينه وبين النادل. ابتسم عصام، وقال:

-لا بأس، لكننا نريد أن نشكره هل لديكم مانع؟ انتظرا قليلًا.

عاد النادل بعد دقائق وقال لهما:

-هيا اتبعاني إلى مكتبه في الأعلى. صعدا وراء النادل، وجدا السيد يجلس وراء مكتب أنيق، قال لهما من غير أن ينظر إليهما:

ما خطبكما؟

أجاب عصام:

-كل ما في الأمر يا سيدي أننا علمنا أن سيادتكم تكرمتم علينا بثمن الوجبة التي تناولناها، وجئنا لنشكرك على حسن صنيعك معنا.

قال سالم مضيفًا:

أنت فعلًا شهم وكريم ونحن هنا لنشكرك، وإن كان النادل في البداية لم يرد أن يستقبلنا في مطعمكم. كان سالم يتكلم إلى الرجل والآخر منشغل عنه في هاتفه، وبعدما أنهى كلامه، قال له:

-جيد، أنت إذن تشكر، وفي الوقت نفسه تقدم شكوى في حق النادل.

أجاب سالم:

-كلا يا سيدي، معذرة قلتها للتوضيح فقط.

قال عصام مضيفًا:

-الله يجازيك على صنيعك، أنت طيب كثيرًا.

ابتسم الرجل، وقال:

-جميل، إنك تتكلم مثلنا.

-نحن أيضًا يا سيدي نقول مثل هذا القول، لكني اخترت أن أقولها بطريقتكم لتكون أكثر تعبيرًا.

عصام وصاحب المطعم يتحدثان، وسالم ينظر إليه بتمعن، وبعدها قال متسائلًا:

-ألست صاحب السيارة البيضاء؟

انتبه الرجل، وقال:

-عن أي سيارة تتحدث يا ولدي ؟

أضاف سالم:

-أجل أنت هو، والله أنتَ، كيف لم أتبين ملامحك من أول نظرة؟ وهل أنت شخص يُنسى؟

-جميل، أنت دقيق الملاحظة إذن.

-أنا لا أنسى كل من قدم إليّ معروفًا، تظل ملامحه لصيقة بذاكرتي، قد تجمعني معه الحياة ذات يوم فأعرف كيف أرد له الجميل، كما لا أنسى ملامح كل من أساء إليّ.

-أنت بالإضافة إلى ذلك أمين وذكي، تعرف كيف تخزن المواقف التي مرت بك، وفيما تستعملها، ومتى.

-أجل يا سيدي، علمتنا الحياة ما لم تعلمه لنا المدارس، ولا الأسرة، نحن نتعلم كل يوم أشياء كثيرة من الرصيف

الذي نقف عليه؛ تعلمنا كيف نحتاط، كما تعلمنا كيف نفرق بين أصناف الناس، ونميز بين معدن كل واحد.

-إذن، أنت لك خبرة في الناس أيضًا، ولكن سنك يقول عكس ذلك، تبدو صغيرًا على كلام كبير كهذا.

-هذا دور الرصيف يا سيدي، اليوم فيه طويل، والعِبَرُ كثيرة كما المحن، والوجوه التي تمر علينا كل واحدة تعلمنا بطريقتها، والقليلة هي تلك التي تكون يدها دافئة ويتسرب دفؤها إلى أعماقنا بالحنان الذي افتقدنا طعمه، هل تعرف يا سيدي الدفء الذي تسرب مع ما قدمته يدك إلينا صباح اليوم؟

لقد سرى في أعماقنا وجعلنا نفكر في قضاء يوم جميل لولا اعتراض صديقنا الإفريقي، وأخيرًا اهتدينا إلى حل وسط وكان تناول وجبة غذاء في مطعمك هذا، لم نكن نعلم أن الحظ يخبِّئ لنا كل هذا الفرح.

-والله غلبتني يا ولدي، وماذا عن صديقك؟

عصام:

ـ أنا؟

ـ أجل أنتَ، ومن تحسبني أقصد؟

ـ حسبتك تتكلم عن الإفريقي، لأنه صديقنا أيضًا.

ـ بل أقصدك أنتَ، ما اسمك يا ولدي؟

ـ أنا عصام من حلب، أقصد من سوريا.

ـ مرحبًا بك يا ولدي في بلدك الثاني.

-الله يكرمك يا سيدي، أنت فعلًا أغدقتَ علينا من كرمك، تقدم لنا المال صباحًا، وتستضيفنا في مطعمك في اليوم نفسه، وتستقبلنا في مكتبك رغم أننا من الرصيف كما رأيت، وها أنت تناديني بولدي.

ـ الناس سواسية يا ولدي.

عصام:

ـ هذه تعاليم ديننا الحنيف، ولكن ما نراه على أرض الواقع غير ذلك.

لا بأس، سوف لن أجادلك ربما لك حججك وغلبتني في آخر المطاف، وأنا لا أريد أن آخذ من وقتكما كثيرًا لأني

أعرف أنكما تشـتغلان، كل ما أود قوله لكما؛ أن مطعمي يرحب بكما في أي وقت شئتما.

ضحك سالم، وقال:

ـ ألا يأتي يوم وتُغلق بابك في وجوهنا؟

ـ كلا لن أفعل يا ولدي.

عصام:

ـ أنعتبر كلامك وعدًا لنا؟

ـ أجل هو كذلك.

سالم:

ـ قبل أن تقرر، لا تنسَ نحن ثلاثة، قالها وهو يبتسم.

أجاب صاحب المطعم:

ـ وتدافعان عنه رغم غيابه؟

عصام:

-نحن لا نترك صـــديقنا مهما كلفنا الأمر اتفقنا منذ مدة قبل أن نعرف بعضنا جيدًا على أن نبقى معًا إلى أن يقضـي الله أمرًا كان مفعولًا.

-وأنـا أوافـق عـلـيـكـم أنـتـم الثـلاثـة.

ـ ما هذا؟

في أي يوم من أيام السنة نحن؟

قالها ســـالم متســـائـــــلًا، وهو يقلب عينيه بينهما. وأضاف مستفسرًا:

-ألسنا في السابع والعشـرين من رمضان؟ أقصد ألسنا في ليلة القدر؟

لو كان الأمر كذلك لظننت أن باب القدر فتح لنا. ضحك الرجل، وقال:

-أنتم صـحبة وفية حافظوا على علاقتكم، أهم شيء في هـذه الدنـيـا أن يجـد الإنســـان أصـــدقـاء أوفـيـاء. لأن الوفاء أصبح عملة نادرة، ولم تعد إلا المصلحة وحدها التي تجمع بين الناس، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة إذا

انعدمت الغاية تركوا بعضهم، وابتعدوا بحثًا عن المصلحة في مكان آخر ومع أناس آخرين.

عصام:

- هذا كلام والدي أيضًا، وإن كان يقوله بطريقة أخرى.
-التجربة يا ولدي هي من تعلمنا، والإنسان هو نفسه في كل زمان ومكان.

ـ سنتركك يا سيدي، وشكرًا مرة ثانية.

ـ العفو.

ـ لا بد أن تعودوا لتناول وجباتكم كما وعدتكم، ومجانًا.
عصام:

اعذرني يا سيدي لديّ وجهة نظر مخالفة.
ـ هيا تفضل.

-أنا و صديقي الإفريقي نت سول، والأ سباب أنت أدرى بها ولا داعي لشرحها.

ـ هيا أتمم، لا عليك.

-نطلب من المارة كل ما يجـودون به، أحيانًا نلتقي بمن هم كرماء فيجزلون لنا العطاء، وأحيانًا أخرى نلتقي بمن هم أشد قسوة، وفي أوقات كثيرة نسمع كلمة ـــ الله يسهل ـ وهذا الدعاء أيضًا جميل، وفيه نوع من المساعدة؛ لأن من بين هؤلاء الناس من يســتجيب الله لدعواته ويضــع في طريقنا محسنًا طيب القلب.

ـ مفهوم، مفهوم يا ولدي.

-أريد أن أقول؛ ســيصــعب علينا طرق باب المطعم ثانية لأننا وقتها ســنشــعر وكأننا فرضــنا عليك الصــدقة، وقد تكون على غير ما يرام، وتنظر إلينا نظرة دونية تسـيء بها إلينا دون قصد، وتســيء أيضًا لفعل الخير الذي قمت به.

السيد:

ـ والله أنت على صواب، وأنا أحترم وجهة نظرك.

سالم:

-وما العمل إذن، لا بد أنك تريده أن يمر بجوار الرصـــيف ليدفع لنا كل يوم ثمن الوجبة، قالها وضـــحك عاليا.

قال السيد:

-أنا لا أمانع إذا كان الأمر يريحكم.

عصام:

-ولماذا كل هذا التعب يا سيدي؟

قال سالم:

-لدي حل وسط.

السيد:

-هيا ما هو يا نبيه؟

- لماذا لا تبحث لنا عن عمل عندك نشـــتغل فيه بجد، ونأخذ ثمن تعبنا.

قلب الرجل عينيه بينهما، وقال:

-فكرة لا بأس بها، عودا إليّ بعد أيـام أكون قد فكرت في الأمر وفكرتما بدوركما، لأني ملزم اللحظة بموعد مع أحد الأصدقاء.

****

بعد رحلة مضنية على ظهر السفينة وصل نزار مع مجموعة من رفاقه إلى مدينة بوردو الفرنسية كان الوقت ليلًا ذهب برفقة صديقه إلى بيته حيث قضى في ضيافته بضعة أيام ريثما يتدبر له عَمَلًا في مطعم لرجل أعمال تركي. صاحب المطعم معروف بمساعدته للغرباء وخاصة من كانت ظروف الحرب والبؤس سببًا في رحيله عن أرضه، هناك وجد نزار الملجأ والقلب الكبير الذي يحضن الكل، عمل بتفانٍ إلى جوار باقي العمال وكان يقضي الليل في مرآب تابع للمطعم مع مجموعة منهم، لم يكن يشغل باله شيء بقدر ما كان همه هو أن يعمل بإخلاص ويتمكن من الحصول على أوراق الإقامة بعدها يتفرغ للبحث عن أهله. كانت تصله أخبار السوريين جملة كان يعلم أنهم مشردون في العديد من البلاد لكن ماذا بوسعه فعله حتى المال الذي كان يحتكم عليه دفع جزءًا منه لسفر عائلته والجزء الذي ظل بحوزته ضاع منه الكثير قبل السفر ودفع الباقي ثمنًا لرحلته. نزار يقضي اليوم في العمل صامتًا مفكرًا، في الليل يتكلم عندما يطلب منه وكلما كانت الضرورة لذلك يقدم أحيانًا النصيحة للبعض وأحيانًا يكتفي بالاستماع لهموم رفاقه في العمل، لم يكن

يحكي كثيرًا عن أحزانه وهمومه يكفي أنه مهاجر من بلد ا شتعلت سماؤها نارًا، ماذا يقول وكل القنوات تتكلم عنها أي كلام سيكون غير مجدٍ لذلك كان يجد في الصمت ما لا يمكن أن تعبر به الكلمات.

في طريق عودتهما لم يتبادلا أية كلمة، كان كل منهما يسبح في بحر أحلامه، وصلا إلى الرصيف كان صديقهما منشغلًا بالتنقل بين السيارات توقفا وهما ينظران إليـــه، انتبه إلى وجودهما بعدما أضـاءت الإشـارة الخضـــــراء، وقال:

ـ حمدًا لله على سلامتكما.

ـ الله يسلمك أجاب سالم.

عصام:

ـ لم ندفع فاتورة الأكل، صاحب المطعم كان كريمًا معنا.

ـ حقًا كيف وقع ذلك؟

-أجل، كان كريمًا جدًا؛ لأنه بكل بسـاطة هو صـاحب السـيارة البيضـاء الذي قدم لي صـباحًا الورقة المالية.

مامادو:

ـ صدفة غريبة أليس كذلك؟

عصام:

-ألم أقل لكم أن لا وجود للصـــدفة، وأن كل ما يقع في حياتنا هو تســـيير من الله تعالى لحكمة لا يعلمها إلا هو.

سالم:

ـ كيف تشرح ما وقع اليوم إذن؟

عصام:

ـ ألم يقدم لنا الرجل الورقة المالية؟

ـ أجل فعل.

-ألم نقترح القيـام بجولـة بعـدمـا رأيتموني مهمومًـا للتخفيف عني؟

ـ نعم حصل.

ـ ألم تكن الورقة حافزًا للذهاب للأكل.

ـ أجل بكل تأكيد.

وما رفضك القيام بالجولة إلا ليقع اختيارنا على فكرة المطعم، ونلتقي بنفس الرجل.

ـ إذن كل شيء بتدبير من الله تعالى.

ـ أجل هو كذلك.

سالم:

ـ ما رأيك يا عصام في العمل عنده.

-فكرة جميلة إذا وافق عليها، ستحفظ لنا القليل من كرامتنا التي بقيت لم تدَسْ.

ـ وإذا رفض؟

ـ إذا رفض لنا رب اسمه كريم، ولن يتخلى عنا.

سالم:

ـ انتبه، حذار أن يشغّلنا في الممنوعات.

عصام:

ـ ماذا تقول؟

سالم:

-أجل رجل ثري مثله، وسخي بهذا الشكل لا بد من الاحتياط منه.

عصام:

-لماذا نسيء الظن بالناس الكرماء، ولا نسيء الظن بغيرهم؟ هل القاعدة عكس الواقع؟ ألا تعلم أن الكرم في الناس هو الأصل، والبخل والشح مكتسب بسبب خوف الإنسان من الأزمات المالية لضعف إيمانه في الرازق. إذا قبل بتشغيلنا، علينا أن نتوكل على الله ونبدأ العمل بجد.

سالم:

-وماذا إذا كانت الأجرة لا تفي بحاجياتنا؟

عصام:

-لا داعي لإغلاق أبواب الرزق يا سالم، يوافق على تشغيلنا أوّلًا، وحين نبدأ العمل سنرى كيف تسير الأمور، وإذا رأينا في الأمر استغلالًا من أي نوع، نتخلى عن العمل عنده بسهولة ليست لنا بضاعة ستكسد أو يتم إتلافها، نحن أصلًا لا نحتكم على شيء.

ظل مامادو يتابع الحوار دون أن يتدخل بكلمة. انتبه إليه سالم، وقال:

ـ ما رأيك يا أخي؟

مامادو:

-والله اليوم تقع مجموعة من الأشياء متتالية، وما أظنني بقادر على استيعاب كل ما يحدث من حولي جملة، لا بد من وقت للتفكير. وأضاف:

-أنا فعلًا لا أحتكم سوى على بشرتي السوداء التي وإن كانت سببًا في تعاستي مرات عديدة، إلا أنها تجعل القلوب الرحيمة تعطف عليّ على اعتبار أني مهاجر إفريقي وأستحق الشفقة.

****

عجلة الأيام لا تتوقف، تـــدور باستمرار يخيل إليك أنها تمضـي على نفس الوتيرة وأن كل الأحداث التي مررت منها تتكرر مع تغيير بســيط في طريقة أداء الأدوار؛ كأن حياة الماضي شريط سينمائي يعرض أمام أعيننا ونحن من يؤدي الأدوار والجمهور في الآن نفسه مع تغيير في الملامح وشكل الملابس حسب الدور الذي نشخصه.

لازلت أقف على الرصيف إلى جانب صديقي في المحنـــة نســخر من الظروف حينًا، ونشــتم واقعنا حينًا آخر، لا نلتفت إلى الزمن الذي يمر من عمرنا بقدر ما نلتفت إلى إشـارة المرور، نضـحك أحيانًا أخرى لما يقوم به سـالم من تهريج في انتظار الإشـــارة الحمراء، نفرح عندما يقدم لنا أحدهم كيسًـا مملوءًا بالملابس المسـتعملة نتقاسـمها فيما بيننا حسب الحاجة، وكنت أحظى بكل الملابس الصغيرة لأنـهـا قـد تـكـون على مـقـاس بـاقي إخـوتي. يداعبنا الأمل كلما مرت سيارة تشبه سيارة السيد، نسبح في أحلام جميلة، إلى أن تعيدنا الإشـارة الحمراء إلى واقعنا. نفترق في المســاء بعدما تميل الشــمس إلى المغيب، نترقب باســتمرار تلك اليد البيضـــاء التي بإمكانها مدّ أمانينا

وأحلامنا التي جفت عروقها بقطرة ماء، وتضع نهاية لأيام التسول والحاجة، من بإمكانه إعادة الحياة إلى بذرة الأمل في أعماقنا، وهل كانت فرصة العمل عند السيد هي بارقة الأمل الوحيدة التي ننتظر لمعانها في سماء غشيها ظلام الظلم؟ ربما.

كلما ملأنا الملل ردد أحدنا قول الله تعالى: (إن الله مع الصابرين) صدق الله العظيم. تغير سلوك سالم، وبدأ يؤدي فريضة الصلاة، وإن كان لا يواظب عليها في أوقاتها بحجة أنها أوقات طلب الرزق التي يترقب فيها مرور السيارات، وأحيانًا أراه يبسط بدوره ذلك الجزء المهترئ من الحصير الذي نحتفظ به بالقرب من البيت الذي نجلس إلى جواره في أوقات الاستراحة لغياب أهله عنه ليصلي عليه مثلما كنت أفعل. كنت أراقب حركاته أجده يسرع أحيانًا، ويتظاهر بالإبطاء أحيانًا أخرى، أتعمد عدم التدخل أو التعليق، وجدت نفسي أفعل معه كما كان والدي يفعل معي عندما كنت أرافقه في أيامي الأولى إلى المسجد، كان يومها لا يصرح لي بالخطأ، ولا يخبرني أني لا أتقن صلاتي، بل كلما وجد

فرصة تحدث فيها عن الطريقة السليمة لأداء الصلاة بشكل عام، ويحكي لي حكايات عن أداء الصلاة تعود إلى عهد الصحابة رضي الله عنهم، على أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، فتجدني أنتبه وأخجل من صلاتي التي لم تكن جيدة، كنت أفهم بنباهتي أ نه يلقنني درسًا في الصلاة، فكنت أصحح تدريجيًا كل الأخطاء، ووجدتها فيما بعد طريقة سليمة لتصحيح الاعوجاج الحاصل في طريقة أداء سالم دون أن أسبب له أي إحراج، وهكذا سلكت معه نفس الخطوات، أما عن صديقنا مامادو فكان ينتبه جيدًا للتغيير الذي بدأ يطرأ على سلوك سالم، فتجده لا يُفَوِّتُ فر صة ليخبرنا بما لاحظه خا صة بعد امتثاله للصلاة.كان سالم يثور أحيانًا، ويحاول أن يدافع عن نفسه متسائلًا:

-ترى هل كان سلوكي خشنًا من قبل؟ فكنت أعمد إلى تهدئته وتذكيره بفضل الصلاة في تهذيب الأخلاق، وأ ستدل بما سمعته من كلام والدي، وما عرفته من بعد ذلك من الكتب التي أنهل منها.

كلما حاول عصـــام جاهدًا نســـيان ذاك الكم الهائل من الذكريات التي خلفها وراءه كانت تصـــــــر على المثول من جديد أمام ناظريه والمرور بـــذاكرته بكل تفاصيلها، ها هو كلام صـــديقه عن تغير ســـلوك ســـالم يعيده وبقوة إلى حلـب، يعيـده إلى كل الذين أحبهم وتعلق بهم. كان يملأه شعور أنه على العكس منهما تمامًا، وأنه مرتبط بقوة إلى جـذوره وبكـل الأمكنـة التي خلفهـا وراءه، ومتعلق بالهواء، وبالتربة، بالأهل بالأحباب، بمدرســـته بدكان والده، بصـــوت الأذان التي يقتحم عليه المكان ليملأ قلبه بحب الله لكثرة المساجد التي يصل أذانها إلى بيتهم، كأنهم يعمدون إلى تذكير من لا ينتبه لصـــلاته، كل شيء كان جميلًا، كل الأماكن له فيها ذكريات، ولها مســـاحة في قلبه.

أحب الأماكن لحبه لمن ســـكنها، تعلق بالشـــوارع لأن له ذكريات فيها؛ ليالي الصـــيف الدافئة وهو يعبرها جيئة وذهابًا مع والده يشـــتري له المثلجات من دكان خاص بها، وصـــدى ضـــحكاته التي تتعالى في الحي مع الأقران، وعلى ســـطح البيت الكبير مع أبناء العمومة، وبنات الخالات

عندما كن يزرنه خاصة في الأعياد والعطل، وليالي الصيف الطويلة التي يستمعون فيها إلى حكايات الجد المشوقة، واعترافات الآباء بما فعلوه من شغب في شبابهم وبطولاتهم صحيح لا يمكن أن يصرح المرء بما فعله في حينه لأنه يخاف اللوم والانتقادات، ولكن عندما يصبح مسؤولًا عن نفسه يصبح بإمكانه الاعتراف بما فعله فيكون الضحك من المواقف بدل اللوم والعتاب وشغبه مع فريق الكرة الذي كان يلعب معهم مقابلته المفضلة عشية كل جمعة بعد عودته من المسجد برفقة والده وبعد وجبة الغذاء التي تكون مميزة، ويجتمع كل أفراد العائلة حول موائد اشتغلت جل النسوة لتحضيرها، كل شيء يذكره ببلده.

انتبه سالم إلى عصام الذي لم يعد يتابع كلامه، وقال له:
-لا تقل أنك سافرت من جديد في ذكرياتك.
ينتبه عصام، ويقول:

-وكيف لا أسافر وكل شيء يعيدني إلى أرضي، إلى هناك، حتى المطعم الذي أكلنا فيه رغبة منّا في نسيان وضعنا والتخفيف من حالة البؤس التي نبدو عليها كانت

المذيعة تعرض أخبارًا عن الدمار الذي حل بسوريا وعملية الترحيل المستمرة. وكيف يتم إجلاء المواطنين من شرق حلب، عيناي شاخصتان على الشاشة، وشريط ذكريات أسرتي المؤلم يعرض أمام ناظري، وأنا أضغط على دموعي لكي لا أعكر عليكما وجبة الغذاء وأشارككما الضحك مرغمًا.

سالم:

معذرة يا صديقي، علينا أن نتوقف لنفكر في المستقبل وإلا عشنا بقية عمرنا نجتر أحزان الماضي.

-كيف يعقل أن نعيش حاضرنا، ونتطلع إلى المستقبل ونفكر فيه من غير التفكير في الماضي ألا تعلم أن الماضي جزءًا منّا ومن حاضرنا ومستقبلنا إننا نحمله بكل ثقله بكل أفراحه وهمومه بداخلنا لقد تمكن منّا، وأحكم قبضته علينا إننا يا أخي مسلوبو الإرادة مسجونون داخل قضبانه، ولا أظننا نفلت من أسره مهما حاولنا قد نتحرر لبعض الوقت لكن القيد يكبلنا من الداخل يكبل إحساسنا ومشاعرنا، ومهما حاولنا ومهما طال العمر بنا

سـيظل يملؤنا ذاك الإحسـاس، وسـيظل ينزف الجرح بأعماقنا، هذا قدرنا ولا مفر لنا منه.

****

في البيت إلى جوار والدته وإخوته يجلس في مكانه المعهود يأخذ كتابًا يتصفحه، وعقله مشغول بأشياء أخرى، لم تشأ والدته أن تبعده عن القراءة لأنها كانت ترغب أن يبقى على صلة بالتعلم، وإن لم يتمكن من ولوج إحدى المدارس كما هو الحال بالنسبة لباقي إخوته. اليوم على غير عادته وكأن الذكريات كلها حضرت دفعة واحدة أمامه وتلح عليه تصفحها لذلك ترك الحروف تتراقص أمام عينيه وسافر في ذكريات مدرسته إلى جانب زملائه وزميلاته في الفصل، يتذكر تفاصيل ذلك اليوم الذي سقطت فيه القذيفة على المؤسسة بحجة أنها تأوي المجاهدين، يومها شاهد عن قرب أشلاء رفاقه في المدرسة فبقي طريح الفراش مدة تزيد على الأسبوعين يعاني فيها من نوبات تزوره ليلًا، ويستيقظ في كل مرة وهو يصيح من الرعب والفزع، من يومها لم يعد إلى المدرسة لأنها خربت ولم تعد صالحة للتدريس، لقد نجا مع مجموعة من التلاميذ ممن قدر لهم الحياة من جديد. كلما أخذته أفكاره بعيدًا في هذه الرحلات يجتاحه إحساس بالضيق والألم؛ سنوات خمس مرت لم يستطع أن يشفى من وجعه، ولم يستطع تجاوز محنته التي ظلت ماثلة أمامه في كل الوجوه،

وكل الأمكنة، ما وقع في الشام غير حياتهم كليًا. يتساءل باستمرار ولا يجد لأسئلته جوابًا مقنعًا:

-أي ربيع هذا الذي أحرق الشام؟ ألم تكن الشام قبل هذا الربيع المشؤوم مزهرة خضراء؟

جل البيوت كانت محاطة بحدائق صغيرة. ومملوءة بالأصص التي تفنّن أهلها في زرعها والعناية بها. لماذا هذا الربيع إذن؟ أنا لا أفهم شيئًا، تقول والدتي عني؛ أني صغير ولا داعي لفهم السياسة. لكنني كبرت، و بدأت أفهم أن السياسة لها مفهوم واحد؛ تُدَمَّرُ القاعدة لتعيش القمة، إذن على القاعدة أن تظل تحمي القمة، مهما كانت الويلات التي تتخبط فيها. وماذا عن شجرة العائلة التي حدثني عنها والدي؟ ترى أين وصلت فروعها اليوم؟

لقد سقطت بسقوط حلب، بل أخرجت من تربتها، ومن السهل على الشجرة التي اقتلعت من جذورها أن تتساقط أوراقها ويلحق الجفاف بأغصانها بسرعة ليكون مصيرها الموت المحتوم بعد ذلك. والدتي لم تجد صعوبة في حمل الأشياء التي حملتها تلك الليلة، لقد كانت تنتظر تلك اللحظة منذ انطلاق الشرارة الأولى للحرب على سوريا، بل

منذ أول انتفاضة في ذلك الربيع الأسود الذي ملأ حياتنا دخانًا وويلات؛ كانت تنام وإلى جوارها حقيبة تجمع فيها كل الأوراق التي تخص العائلة حتى وثائق البيت والأرض التي نملكها، وما ورثناه عن جدي الذي غادرنا قبل الربيع المشؤوم، وألبوم الصور وبعض الأشياء النفيسة. كانت المسكينة تقضي اليوم وهي تتنقل بين الغرف تطل على كل واحدة، وتقف كثيرًا تتأملها بحسرة، وكأنها تودع ما صنعته يدها وما اشترته من أثاث رفقة والدي، حتى من قبل أن يتزوجا كانت تطرز أشياء جميلة بيدها تلك تقاليد عريقة في الأسر الشامية، تركت والدتي كل ذكرياتها الجميلة وراءها وفرت بنا، أجل فرت بفلذات كبدها كما نصحها والدي، تحملت مشقة الرحلة، تحملت الكثير من أجل أن نحيا، لم تتحسر والدتي على شيء بقدر ما تحسرت على الأهل الذين لا تعرف ما حل بهم بعد رحيلنا، لم يعد للأشياء أية قيمة هكذا تقول باستمرار.

لكني أدرك أن كل شيء تركته وراءها يؤلمها فراقه، والدتي كانت مرتبطة بكل حفنة تراب من سوريا، والدتي كانت تحب أرضها كثيرًا، لذلك تؤلمها ذكرياتها في بيتها ومع

أسرتها، تجلس والدتي بالساعات وهي تنظر إلى الصور وتخبرنا عن كل واحدة خاصة إخوتي الأصغر مني تعرفهم بأهليهم وذويهم. ترى هل سينتهي مسلسل وجعنا يومًا؟ أم ستظل والدتي تحكي تفاصيل عائلتنا في سوريا إلى أن يشيخ بها العمر، وتبقى مجرد حكايات تحكيها الأم لأبنائنا في المستقبل، وننقلها بعدها إلى الأجيال القادمة؟ ولكن، إذا عدنا، كم يلزمنا من الوقت لترميم ما تساقط منا؟ وأي دواء يشفينا من آلامنا وأوجاعنا؟ وهل نستطيع جميعنا العودة؟ أم سيرفض البعض العودة ويفضلون العيش في الغربة، بحجة أنه يصعب عليهم العودة إلى أرض سقتها دماء أهليهم وذويهم، وأنها ستذكرهم باستمرار بوجعهم. عشت طفولتي وأنا أتغذى على حكم والدي، وحكايات جدتي المشوقة، ونصائح والدتي التي لا تنتهي. رانيا زميلتي في الفصل تلك الطفلة الجميلة كانت نظراتها تحمل لي كل الود والحب، لم أكن أفهم نظراتها حقًا، يومها كنا قد تجاوزنا العاشرة من العمر لكني اليوم أستطيع أن أفهم تلك المشاعر. ولكن أين هي رانيا؟ رانيا كتبت لي يومًا رسالة تقول فيها: "أنت يا عصام صديق لطيف جدًا وتحب الجميع".

هذا ما كتبته رانيا، لكنها رسمت بجوار الكتابة رسومات كثيرة، كانت المسكينة شغوفة بالرسم، رسمت ورودًا متفتحة وطيورًا وحديقة، كانت رانيا مملوءة بالحياة. لكن رانيا راحت ضحية الانفجار الذي حول المدرسة إلى ركام، والصغار إلى أشلاء. لست أدري يومها هل كنت أبكي رانيا؟ أم كنت أبكي من الرعب والهلع؟ أم تراني كنت أبكي كل الزملاء والزميلات الذين ماتوا؟ وحتى أولئك الذين لم أعرف مصيرهم بسبب رحيلنا المفاجئ؟ يوم ناولتني رانيا الرسالة أحسست بالخجل يملأني، ولم أعرف بماذا أجيب، وإن كان لا بد أن أرد على ما كتبت، كانت أول كلمات تصلني من أنثى. الإحساس بالخجل من الموقف جعلني أبتعد عن مكان تواجدها وعن نظرات باقي الزميلات، كنت أظنهن يعلمن بسر تلك الرسالة، خفت كثيرًا أن يفتضح أمرنا وأصبح محط سخرية الجميع، بعد أسابيع قليلة من ذلك انتهى كل شيء، بتلك الغارة التي شنتها قوة التحالف وضعت نقطة النهاية وفتحت قوسًا في أعماقنا إنه الجرح الذي ينزف دون انقطاع. هذا هو الضياع، يقذف بالقوم في جميع الاتجاهات، إنه حرب عمياء ولا عقل لها تضبط به الأمور قبل حلولها، ولا

عاطفة تحس بما تخلفه وراءها من ويلات، كل واحد تبعث به بعيدًا عن الآخر ويستحيل أن يجتمعوا من جديد، بالنسبة للأحياء يبقى الأمل ضَعِيفًا ، ولكن من مات فلا لقاء إلا يوم اللقاء. أجل ضاع الناس بسبب الحرب، وأبعدت بينهم الأيام ورحل كل واحد منهم يحمل آلامًا من غير أن يحدد الوجهة، رحل ولا شيء يشغل باله غير الرحيل، المهم أن يبتعد عن الوطن الدامي.

والدتي تحكي لنا كل مساء بعدما تغلق باب الغرفة التي تضمنا بين جنباتها في سكن يأوي عائلات من سوريا بعدما تكلفت بها جمعية حماية اللاجئين السوريين التي أنشأها بعض المحسنين ممن لهم غيرة على الإنسانية عن الشام وتقاليد بلدنا، تحكي عن الحديقة التي كنا نلعب فيها، كنت أتألم في البداية وأتمنى لو تتوقف عن الحكي، كانت تحكي لنا أبسط التفاصيل لكن في حديثها تتحاشى ذكر والدي ربما كانت تقصد بذلك إبعادنا عن السؤال الذي لا تجد له جوابًا والذي يتكرر على مسامعها باستمرار خاصة من إخوتي:

ـ متى يعود والدي؟

يكون جوابها سؤالًا آخر:

-ترى متى تنتهي الحرب، ويتوقف هذا الطغيان ا لجائر؟ ينتبه ع صام إلى صفحات الكتاب التي بدأت تتلاعب بها نسمة الهواء التي تهب من النافذة التي يجلس أسفلها، يغلق بعدها الكتاب، ويضعه على صدره ويحول بصره إلى سقف الغرفة بعدها يتمدد قليلًا ليكمل رحلته وحديثه مع نفسه:

-عندما يعود والدي سأحكي له عن العذاب الذي مرّ بنا، وسأحكي له عن كل ما فعلناه في غربتنا، سأحكي له عن آلام والدتي التي لم تفصح عنها، عن تحملها وكتمانها، سأحكي له عن قهري، وعن حرماني من الدرا سة، سأحكي له عن كل الإ ها نات التي تجرع نا ها، عن الخوف، وكيف أصبحت رجلًا قبل الحادية عشرة من عمري، عن تظاهري بالشجاعة والخوف مزروع بأعماقي، عن حماية والدتي من الذ ئاب المفترسة، عن خوفي على إخوتي لأني اعتبرتهم أمانة في عنقي، وسأحكي له عن شجرة العائلة التي لا زلت أحفظ فروعها وأغصانها، وحتى أوراقها عن ظهر قلب مع أنها تساقطت وتشتت في أرجاء المعمورة،

وربما أكثر جزء منها قضـــى غدرًا، وبقي تحت الركام ولم يغادر التراب.

****

ذات صـــباح قمت من النوم متأخرًا كانت والدتي قد هيأت لنا فطور الصـــباح، وتجلس حول المائدة ترتشـــف قهوتها وهي تستمع إلى صوت المذياع الخافت، كانت تلك عادتها منذ كنا في الشـــام رغم تواجد أكثر من تلفاز في البيت تفضـــل الاســـتماع إلى المذياع لأنه ينقل أغاني جميلة تتخللها وصفات الأكل، ونصائح في التربية وعلم النفس وأشـــياء مختلفة تتســـلى بها، أما اليوم فهي لا تســـمع إلا للأخبار تتعقبها من إذاعة إلى أخرى، جلست إلى جوارها بعدما قبلت يدها ورأسها كما اعتدت أن أفعل كل صباح، كانت بدورها تمطرني بدعواتها بصوت خافت، أشارت لي بتناول طعام الفطور وهي لا تزال تســـتمع إلى المذياع، شـــاركتها فطورًا خفيفًا. وما كدت أنهي آخر رشـــفة حتى ســـمعتها تخرج عن صـــمتها وترفع رأســـها وتقول بحسرة: منذ خمس سنوات وسوريا تحتضـــــر، وها هي تلفظ آخر أنفاسها، قاومت المسكينة كثيرًا، وتحمل أبناؤها الشـــيء الكثير، وها هي اليوم تشـــاهد عملية إجلاء أخرى لأبنائها. كانت تتكلم وبريق يلمع في عينيها كنت أعلم لو استمرت تتكلم أكثر ستنفجر دموعها اكتفيت بهز رأسي من الأمام إلى الخلف في حركات رتيبة، وأنا أحاول أن أسرع في ارتداء

حذائي لأغادر قبل أن تنهمر دموعها، وتركتها على حالها وإلى جانبها تنام أختي الصغرى التي لم تلتحق بالمدرسة تنتظر متى تستيقظ لتؤنس وحدتها. هكذا تركت والدتي في البيت، وأنا أعلم أنها تتألم في صمت لا تعرف ما تقدم وما تؤخر، أعرف أن ما يشغل بالها باستمرار هو حالنا قبل ما يزيد على الأربع سنوات وتفكر في الوضع في سوريا الذي ازداد سوءًا.

-كلما تحدثت والدتي عن والدي، وكيف تمكن من أن يصبح له اسم في السوق تبدأ بوصف طريقة تعامله مع الزبائن قائلة:

ـ أبو عصام كانت تقاطيعه صارمة، لكن الابتسامة كانت تلازم وجهه ولا تكاد تفارق محياه، يدير عمله بكل مسؤولية، ويساعد باستمرار كل من يمد يده طلبًا للمساعدة خاصة من أولئك الشباب الذين تنقصهم الخبرة؛ كان يشرح لهم بالساعات طريقة كسب الرزق عن طريق التجارة، كما كان يشجعهم على البدء بالقليل، ويضيف أن بالقليل مع عدم إدخال الربا في التعامل يتسع الرزق ويبارك الله فيه، ومنهم من كان يقرضه مبلغًا من

النقود ويعود إليه بعد مرور الحول بما أعطاه ولسانه يلهج بالشكر والثناء.

-نعم يا سالم إذا كنت تريد أن ينجح لك أي مشـــروع عليك أن ترعاه بنفســك، لا أحد يعرف قيمة ما تملكه سـواك؛ لأنك الوحيد الذي تعرف العراقيل والصـعاب التي سـلكتها قبل الوصـول إلى ما أنت عليه، وإذا تركته في يد الـغـير ضـــاع مـنـك وتـبـخـر في الهـواء.
ـ لا شك أنها من نصائح والدك أليس كذلك؟

ـ طبعًا رغم غيابه يبقى كلامه هو مرجعي في كل أموري.

أتذكر يا صديقي لقد فكرنا طويلًا في العمل بالتجارة كلانا لم يمانع باســتثناء مامادو الذي تحول ظروفه دون ذلك.
-أنت تعرف جيدًا أني لم أمانع في أي يوم لأني كنت أتوق لمثـل هـذا العمـل، ولكني كنـت أراك مترددًا وتؤجـل باستمرار.

-لم أكن مترددًا، ولكني كنت أنتظر متى تتمكن عائلتي من الحصــول على أوراق الإقـامـة التي يقـدمهـا المغرب للاجئين السوريين.

يصمت عصام قليلًا، ويعود ليقول بنفس مكسورة:
ـ الأحداث الأخيرة التي عرفتها سوريا أحرقت كل الأحلام التي كانت تنتظر التنفيذ.
تقول والدتي:

-إن والدي كان ينوي بناء منزل كبير، يخصص لكل واحد منا غرفة خاصة به، ويجعل للبيت حديقة كبيرة لكن الربيع المشؤوم كان صحوة مزعجة من كل الأحلام، وانقلبت بعده حياتنا رأسًا على عقب. سارت حياتنا بعكس التيار فكانت رحلة العذاب التي لا تنتهي نمنا خلال أيام الرحلة في العراء ليالي طوال، ووالدتي المسكينة تخاف علينا أن نضيع منها، ولولا ما كانت تحتكم عليه وقتها من مال دفعت به إلى سماسرة المعابر لما تمكنا من الوصول إلى هنا، أما أغلبية الأسر فقد بقيت عالقة في المخيمات على ا لحدود التركية تعاني من الثلج والبرد والأمراض.

سالم ينظر إليه يتأمل شكله دون أن يزعجه تركه يرسم بريشته التي يغمسها في جرحه كل ملامح الضياع على وجهه ليضيف ألوانًا قاتمة من الحزن إلى تلك التي تلازم

ملا محه، لم نعرف عصـــام بغير هذا الوجه ذي الحروف الحادة، والنظرة الحزينة التي تنبعث من عينيه الزرقاوين. كانت زرقة عينيه تشـــبه البحر في امتداده وفي هدوئه وثورانه، تراه هادئًا لكنه يخبئ في أعماقه كل الرواســـب، وينتظر متى تهب عليه عا صفة ليتحرك ما بداخله، وترى صفحته قد تلونت بلون التراب، هكذا عرفناه منذ التقينا أول مرة، كتومًا منطويًا وفي الوقت نفسه منتبهًا إلى كل ما يدور حوله، لم يكن يرضى يومًا بالإهانة، كان يحس بها خناجر تمزق أحشـــاءه يبتلعها بالابتعاد قليلًا ثم يعود ثانية بعدما يتناساها أو يتظاهر بذلك، بعد مرور الأيـــام علمنا أن الإهانة جزء من عملنا، وعلينا تقبلها مع كل صدقة تقدم لنا.

كنـت أدرك أن له عزة نفس، لكن كمـا يقول عنهـا باستمرار؛ أنه مضطر لترك عزة النفس بعيدًا ليضمن لقمة عيش لباقي الأسرة. ويعود ليقول:

-عزة النفس كانت يوم كنا نتمتع بكافة حقوقنا فوق أراضينا ومع أهلينا.

يخرج من جديد عن صمته كأنه يكمل كلامًا كان قد بدأه من قبل ربما كان له علاقة بما يفكر فيه:

-اجتزنا رحلة الضياع، ودخلنا بلدًا غير بلدنا أحسسنا بالأمان من الضياع الذي كنا فيه لكننا بعدما تأملنا حالنا جيدًا عرفنا كيف يكون العيش مذلة، وأنت بعيد عن تربتك، وعن أهلك وعن وطنك، والدتي رغم انكساراتها المتعددة ورغم الضياع والخوف اللذين عاشتهما إلا أنها لا تزال تتظاهر بقوة الشخصية أظنها استمدت قوتها من المحن التي مرت بها، وترفض أن تكون تلك الأنثى التي تستسلم للدموع والخوف، والدتي دفنت نفسها فجأة وهي تغادر بيتها، تركت كل ألوان الحياة ولبست جلبابها الأسود يومها غادرت البسمة وجهها وعقدت ما بين حاجبيها، وأخفت كل ملامح الأنوثة، اليوم بعدما كَبرْتُ قليلًا بدأتُ أفهم لماذا فعلت بحالها ما فعلت، لقد كَرَّسَتْ أيامها لتربيتنا وتعليم إخوتي، وتقديم سلسلة من النصائح التي لا تنتهي، نسيتْ فجأة الاهتمام بنفسها لا بد أن الحياة اسودَّتْ أمام ناظريها واكتست بدورها وشاحًا أسود، لكنها تردد باستمرار نحن أملها، ولابد أن

نعود يومًا إلى مسقط رأسنا، وتؤكد أن هذا الليل لا بد أن يغادر سماء سوريا و يحل الضياء الساطع مكانه. كان إخوتي الصغار يسألون في كل مرة:

ـ أهو الليل دائم يا أمي هناك؟

ترد بحسرة:

ـ ليل الظلم والظلام، ليل القهر والحرمان.

كلما تكلمت وختمت بتلك العبارة، تجدني أترقبُ سؤال إخوتي، وأنتظر الجواب نفسه، كل واحد منهم كان ينتظر كلامها ليسأل، وتتعمد الإجابة دون تغيير أي كلمة، تمنيت أكثر من مرة أن أسأل أسئلة كثيرة كانت تراودني لكني أخاف من حسرتها، ومن كلامها الذي يخرج مجروحًا ينزف بدوره كما هو حال الأعماق، لم أكن أفهم كل ما يدور حولي لكني ألتزم الصمت، وكأني أفهم كل الأمور لم أرد أن أخيب نظرتها إليّ وهي التي تحسبني رجل البيت والعارف بكل الأمور.

دائمًا ما تجمعنا حولها وتضمنا إلى صدرها الذي أحس فيه بالاطمئنان بعد يوم من الضياع والتشتت، وكلما حاولت

الانفلات منها لأترك المكان لباقي إخوتي الصغار لأني أراهم أحق بصدرها منّي تردد:

-أنت يا صغيري لن تكبر أبدًا عن صدر أمك، ستظل طفلي الصغير رغم كل المحن التي قفزتْ بكَ على سلم العمر، وحولتك إلى مسؤول عن أسرة قبل الأوان.
يقاطعه سالم قائلًا:

-أنت يا عصام تعرف كيف تعبر عن الأشياء التي مرت بِك، وتصفها بدقة تجعل المستمع إليك ينسى هومه، ويتقاسم معك همومك.

عصام:

-من الصعب التعبير عن كل الأحاسيس المؤلمة منها والمفرحة على حد سواء، لأنه لا وجود لكلمات تعبر عن الأحاسيس وتصفها بكل دقة. أنا يا صديقي لا أرى في الحرب على سوريا وغيرها من البلدان العربية سوى جشع على السلطة، وأنظمة كبرى تُجرّبُ أسلحتها وقوتها في فرض السيطرة والهيمنة على المنطقة، هي وحدها المسؤولة على خلخلة النظام الحاكم،

تخلق الثورات لزعزعة الاستقرار، وهي من تخلق الجهات المعادية لأي نظام، وهي التي تدفع إلى الحرب بين أبناء الشعب الواحد ليتسنى لها بعد ذلك التدخل تحت ذريعة استتاب الأمن، وحماية الإنسان. إنها مجرد حرب حمقاء تأتي على الأخضر واليابس تدمر البلاد والعباد، وربما وقع كل هذا لنضيع بسبب إثم لم نرتكبه، ولم يكن لنا يد فيه لا من قريب ولا من بعيد. نعم، بكل تأكيد هناك إدارة عليا تحدد مسار هذه الحرب، وأين يرحل الأهل، وأين يتم إجلاؤهم، ومتى وكيف؟

لقد فقدنا كل الأحاسيس، وتلاشت كل الأحلام وأصبح كل شيء يلفه الضباب، أينما ولينا وجوهنا فتم ضباب ورؤيا منعدمة.

قبل خمس سنوات من اليوم كنت طفلًا آخر كنت أحلم أحلامًا وردية مثل باقي الصغار، اليوم أحلامي صارت ملطخة بالدماء، صحيح الأيام تغيرنا بسرعة إما إلى الأحسن أو إلى الأسوأ، لكن أنا وعائلتي وكل اللاجئين كلما مرت بنا الأيام كلما زاد إحساس الظلم اتساعًا، وملأ

ضـبـابـه الرؤيـا أمـام أعيننـا وأصـبح واقعنـا مخيفًـا. الحرب كانت أكبر كارثة غيرت مسار بلادنا و شعبنا، وكنا نحن الضـحايا الذين كتب عليهم أن يتجرعوا ويلاتها. لقد جعل منّي والدي تلك الشـخصـية التي يريد أن يراني عليها، كان يريدني قويًا بطلًا محافظًا على الأسرة وحافظًا لكل صـغيرة وكبيرة عن أسرتنا، وهو يؤكد في كل مرة: " التـعـلـم في الصـغـر كالنـقـش على الحـجـر " فعلًا ذاكرتي نقشـت عليها كل الأحداث، وكل ما قيل لي، وكل ما رأيته في بيتنا مع أهلي وأسرتي و ما عشـته في مدرسـتي، وما تجرعته من خوف أثناء رحلتنا، ولا زال النقش عليها قائمًا، الأيام تكمل عملية النقش وملء الفراغات.

أعرف أني لم أخيب ظنه إلا فيما يخص الدرا سة، وهذا أمر لا حيلة لي فيه.

سالم يردد بحزن:

-خمس سـنوات مرت، لم يسـتطع فيها التغلب على حزنه، ولم يسـتطع تجاوز ما وقع يوم تهجيرهم، نعم ما حدث لعائلته ولباقي العائلات، ولكل شبر في سوريا غَيَّرَ نفسيته

وحيا ته رأسًـــا على عقب، وكيف يتأتى للأ يام ترميم ما أفســـد ته يد الطغيان؟ وكم يلزمها من الو قت لذ لك؟ أرفع رأسي هروبًا من ضيق المكان حولي إلى مكان فسيح لا حدود له أتأمل السماء بدقة، وأسافر فيها أجدها هي نفس الســـماء في كل مكان وزمان، إلا إذا عملت أيادٍ آثمة على تغيير لونها وصـــفائها بالقذائف والدخان المتصـــاعد من الحرائق ليتحول لونها بعد ما ارتدت رداء الحزن بدورها. كان القمر لا يزال لم يكتمل بدرًا لينير بشكل أفضل لكني مع ذلك فضلت السفر فيها، كانت أ صوات مختلفة تصل مسامعي اختلطت بصوت ابن جراح الأسنان الذي يشاركنا غرفة على سطح البيت؛ لا بد أن الصغير يحس بحرارة المكان تلتهب أطرافه الصغيرة، ولا بد أن إحسا سه يخبره أنه كان سيكون أفضل حالًا لو ا ستمرت أسرته في بيتهم بسوريا. ربما هي مجرد تخمينات يمليها عليّ خيالي؛ الطفل لم يتجاوز ســنته الرابعة، ولســت أدري إن كان قد رأى النور في سوريا، أم كان يومها لا يزال في بطن والدته، ومن أين له بهذا الإحســـاس، هو لم يجرب غير الذي يعيشـــه ليقوم بـــالمـــقـــارنـــة كـــمـــا هـــو الشـــأن مـــعي. عاد ليفكر في إخوته لماذا لا يســـألون كثيرًا عن ســـوريا؟

لماذا يكتفون بالصمت، ويقتصرون على السؤال عن والدهم، السؤال الوحيد الذي يشغل بالهم؟

ترى هل كان والدي هو كل ما فقدوه؟

أم كونهم صغارًا ، ولم يعيشوا الحياة التي عِشتها هناك، ويفتقدون لذكريات بحجم ذكرياتي تربطهم بالأمكنة كما هو الشأن معي؟

أخي نوفل الأصغر مني الفارق بيننا ثلاث سنوات كان يومها في السابعة من عمره، وفي هذا العمر تكون الذاكرة نشيطة وتسجل عليها كل صغيرة وكبيرة حتى أن علماء النفس يعودون إلى هذه الفترة من العمر لتحليل شخصية الفرد لا بد أنه يسبح في ذكرياته لوحده، يا لغبائي لماذا فكرت أنه لا يعاني من الغربة، وهل كنت أصرح لهم باستمرار بما يعتمل في نفسي؟ أنا بدوري أجري حواراتي مع نفسي باستمرار، وأحيانًا مع سالم وماماودو، وما دار بيني وبين صاحب المطعم. أما عن والدتي وإن كنت لا أصرح لها بشيء فأنا أعلم علم اليقين أنها تمتلك مفتاح ذاكرتي وقراءة ما يدور برأسي، وحدها بمقدورها قراءة

أفكاري وبسلاسة، يكفيها أن تلقي نظرة على عيني التي تفضح مكنونات صدري.

أما بالنسبة لفواز، كان يومها سينهي عامه الرابع. أما عن الصغيرة فداء، كانت يومها قد تجاورت عامها الثاني بقليل.

هذان الصغيران أظنهما أكثر حظًا منّا لأنهما لا يتذكران شيئًا بالمقارنة معنا لكنهما يفتقدان لوالدنا كثيرًا. ماذا دهاني؟ لقد سمعت مرة من صاحب المحل، وهو يحدثني عن اليتم، ويقول:

الصغير لا يحس باليتم؛ لأنه لم يتعود بعد على والديه، وبإمكانه إيجاد العوض في أي شخص آخر، ولا يعرف معنى أن يفقد المرء أحد والديه.

ماذا؟ عن أي يُتْمٍ تكلم صاحب المحل؟ هو كان يحكي عن حاله عندما فقد والدته، وعن الإحساس بالفراغ الذي ملأ حياته، وأعماقه وكان يومها أكبر إخوته، ورأى السرعة التي اندمج باقي إخوته الصغار مع زوجة أبيهم التي أخذت مكان والدتهم في كل شيء.

لكن الأمر هنا يتعلق بفقد الأهل، والوطن والرحيل عنه مكرهًا.

ماذا دهاك يا عصام؟ الوطن أيضًا هو الأم التي أنجبتنا، وإذا لم يكن كذلك فلماذا نرتبط به بهذا الشكل؟ نعم هو أكبر حضن يضم الأبناء ويجمعهم مهما كان عددهم. استمر عصام في النظر بعيدًا إلى السماء، كما استمرت ذاكرته تنقب هنا وهناك وكأنها تستمد قدرتها على ذلك بالهروب بعيدًا.

نظر إلى الساعة الصغيرة الموجودة فوق خزانة يجمعون بداخلها أغراضهم، وجدها قد تجاوزت التاسعة انتبه مذعورًا وجد إخوته قد خرجوا إلى مدارسهم، تساءل ما سرّ هذا الصمت؟ ولماذا لم يستيقظ ولم توقظه والدته بحركاتها حتى وإن أرادت له أحيانًا أن يستريح فإن ما تقوم به من حركات داخل الغرفة يجعله يستيقظ. هَبَّ واقفًا من مكانه ترى أين ذهبت؟ جلبابها الأسود غير موجود، وفداء بدورها غير موجودة، لا بد أنها أخذتها معها لمرافقة الصغار إلى مدارسهم، وذهبت بعدها لشراء أغراض البيت.

تذكر أحداث البارحة فقفز من مكانه و سارع إلى الو ضوء والصلاة ليخرج بدوره.

خرج للتو وجد صديقيه يقفان في مكانهما المعهود بـــدأت الأســـئلة تلوح من نظراتهما تعثرت الكلمات وهي خارجة من شـــفتيـه معتـذرًا عن التـأخير ومحـاولًا التبرير:
ـ لست أدري لقد نمت كثيرًا بسبب الهدوء الذي كان اليوم في الغرفة.

قال سالم:

-وأنـا ظننتـك لم تـذق طعم النوم بســـبـب التفكير.
ـ ولم؟

-لأن الأمر نفسه حصل معي، أنام وأنا أقلب الموضوع في رأسي.

****

انتبه فجأة حين طرقت مسامعه تنهيدة متصاعدة من أعماق والدته بعدما فتحت النافذة الوحيدة التي تطل منها على سطح البيت، واستقبلت النسيم بتلك التنهيدة، لا بد أنها تتذكر الحديقة التي كانت تفتح عليها عينيها كل صباح، لا بل تتذكر رائحة الورد وهي تقتحم عليها البيت. كلما أقبل الصبح استندت بمرفقيها على جانب النافذة، وأرسلت نظرها بعيدًا فيما عساها تفكر والدته؟ أكيد تفكر في عائلتها وزوجها ومسؤوليتها تجاه أبنائها، وكيف تصل بهم إلى بر الأمان؟

وأي مستقبل ينتظرهم على أرض غير أرضهم؟ عادت للتو تقلب في أثاث الغرفة البسيط، وهي تحاول ترتيبه كانت تريد أن تتجاهل بكل تأكيد ذلك الكم من الأفكار التي تدور في رأسها، حاولت أن تدندن ببعض كلمات الأغاني من الزمن الجميل لصباح فخري، لكنها توقفت فجأة أكيد لهذه الموشحات ذكريات.

ـ أين سرحت يا أم عصام؟

وأية ريح حملتك معها هذا الصباح؟

-كنت أنظر إلى باب الغرفة التي يسكنها جارنا الطبيب

مع أسرته، وقد تهرأت من الأسفل لا بد أنها تدخل الحشرات وقد تضر بأبنائه، أفكر أن أنبه زوجته لذلك إنها لا تزال صغيرة، ولا تعرف كثيرًا من أمور الحياة.
-إنه طبيب يا والدتي، وسيعرف كيف يجد لهم الدواء.
-ما هذا الذي أسمعه منك يا عصام؟ من أين لك بهذه القسوة؟

ـ لا والله يا أمي، كل ما في الأمر أنّ بالي مشغول بالموضوع الذي حدثتك عنه ولا أعرف بعد ما أقوم به لا زلت أنتظر رأيك.

ـ عن أي شيء تسأل يا ولدي؟

لقد حدثتني عن أشياء كثيرة، وكما تعلم هناك أشياء أخرى تشغل بالي...

ـ بشأن العمل مع صاحب المطعم.

-جيد، توكل على الله ولن تخسر شيئًا على كل حال أنتم ثلاثتكم نصيحتي الوحيدة أن لا تقدموا على أية خطوة إلا إذا علمتم أين تضعون أرجلكم، الرجل من خلال كلامك عنه يبدو كريمًا وطيبًا و يحب عمل الخير، ومع ذلك

الاحتراس وا جب؛ لأن هناك العد يد من ا لناس يلبس الأقنعة ليوهم الغير بغير الحقيقة. ولم لا؟ قد يكون من أو لئك الذين يستغلون ظروف غيرهم ويسخروهم في أشياء لا نرضاها لنا.

-أكيد يا والدتي، وهذا ما يرعبني، ويجعلني أفكر كثيرًا قبل الموافقة، أما فيما يخص صديقنا الإفريقي لقد أعرض عن الفكرة لأن أمره ليس بيده. لكن سالمًا متحمس كثيرًا للعمل، ويعلل أنها فرصتنا لإ يجاد عمل شريف يحفظ لنا ماء وجوهنا، ونستريح بفضله من نظرات الاحتقار التي تسدد إلينا على امتداد اليوم.

-سالم محق، لكن لا تحملوا شيئًا قبل التأكد منه لا بد من إعمال العقل يا ولدي ولا داعي لتلك الثقة المطلقة. أنا لا أسيء الظن بالرجل، ولن أقابل كرمه بالجحود، ويده البيضاء بالنكران، ولكن التجارب التي نسمع عنها تجعلنا نفكر في كل الاحتمالات، وعلى كل حال إذا كا نت نيته صادقة كما يبدو ستظهر جلية وأكثر وضوحًا مع الأيام، وإذا كان يغلف المكر والحيلة بقناع الطيبة،

سيزول القناع بسرعة ويتلاشى وتظهر حقيقة أمره بسرعة.

تتوقف عن الكلام، ربما تحاول جاهدة إبعاد كل تفكير سلبي يمكن أن يؤثر عليها لكن ما حيلتها وخوفها من المجهول يجعل الأمر يخرج عن إرادتها، والأفكار السوداء تتوالى تباعًا.

أجاب عصام بعد أن اطمأن باله إلى موافقة والدته الأولية وقد استبشر خيرًا، كان يعلم أن حدسها يخبرها بالخير في هذا الرجل وإلا ما كانت لتوافق.

-نعم يا والدتي الحذر واجب في كل الأحوال، وما دمت قد باركت لنا فما عاد ينقصنا سوى دعواتك ونتجه بعدها إلى السيد.

-لساني لا يتوقف عن الدعاء، ولسالم أيضًا ولصديقكم الإفريقي لقد أحببتهما لكثرة ما تكلمت عنهما وعن مواقفهما معك.

سرحت بنظراتها بعيدًا وبالها مشغول في مكان آخر. لا بد أنها تفكر فيما مرّ من أحداث بأرضها وأهلها، وكل

ما تراه هو خراب ودمار وأناس مشـــــردون تتألم لحالها، وتتألم أكثر لحال الطبيب الذي يســكن إلى جوارهم في الغرفـــة المجاورة يقتسم معهم سطح العمارة مع زوجته وأبنائه بعدما تــرك والديه تحت الأنقاض غادر بدوره، وها هو اليوم يعالج الناس بالتنقل إليهم، لا يحق له أن يمارس مهنته كل ما يفعله أنـــه يشتغل لكي يسد رمق صغاره وزوجته بعد ما كانت له عيادة واسم في بلده، فقد الاسم والسمعة والأهل والوطن.

كل شيء يختلف عما ألفته في بلدها. أكيد المغرب بلد يمتاز بطبيعته التي لا تضاهيها أي طبيعة في تنوعها من جبال، وبحار، وغابات، وصحارى و...لكن تواجدها في منطقة جبلية في شمال شرق المغرب تفتقد للكثير من جمال طبيعة الريف لديهم. كانت ترى الطبيعة غير التي أحبتها حتى خضرة الأشجار كانت تقول عنها أنها تختلف عن تلك الخضرة النضرة التي ألفتها في بلادها، وتزيد في وصفها أنها خضـــرة فيها بهاء وإشراق وتفتح بسهولة أبواب النفس لتدخل عليها البهجة وحب الحياة، لكن سرعان ما عاد وجهها يكتســي تلك

الكآبة التي تصاحبها باستمرار وقالت:
-للأسف أصبحت بدورها باهتة وعلاها غبار الدمار والخراب الذي حل بها بعدما تساقط عليها أسمنت البنايات التي كانت شاهقة تعانق السماء.
ماذا حل بالبيت يا ترى بعدما غادروه؟

يا ترى هل لا يزال قائمًا؟

ومن تراه يسكنه؟

تنهدت بصوت مسموع، وقالت:

-الأولى أن أفكر في أهلي وزوجي، أما ما حل بالبيت فلا شأن لي به.

انهمرت دمعتان على وجنتيها كأن كل ما دار برأسها لم يكن إلا من أجل أن يفيض كأس حزنها وينهمر دموعًا، أصبحت عاجزة تمامًا أمام هذا الشريط من الضياع عن السيطرة على دموعها لأنها خارجة عن إرادتها ولها علاقة بما يعتمل في أعماقها.

****

تقول والدتي : شمس اليوم متقدة رغم أننا في فصل الشتاء، لكن شـــتاء هذا العام تأخر كما هو حاله في الســـنوات الأخيرة وقفت بـــدوري إلى جوارها أسندت ظهري لجدار الغرفة المهترئ، وأنا أتطلع إلى معالم الحي التي طمست من كثرة تقادمه. ابتسمت في وجهي لتبدد خوفي، وما زرع في أعماقي من رعب بعدها سرحت نظراتها في تقاسـيم وجهي تتفحصها، وكأنها تأخذ صورة لملامحي لتثبتها في ذاكرتها وأنا في هذه المرحلة من العمر، أو ربما كانت تتطلع في ضوء الشمس إلى الشبه القوي الذي يربطني بوالدي، وربما لسـبب آخر لن تفصـح عنه. ربما كان تعب التفكير الذي أرقني في الأيام الأخيرة لا يزال باديًا على تقاســيم وجهي، لقد أمضـيت ليالي عسـيرة تنازعني فيها كل الأفكار؛ ترى هل أوافق على العمل مع السيد؟ ترى هل الأمر لا يخلو من مجازفة؟ كانت الأفكار متشابكة في رأسي، ما إن أفرغ من حل واحدة، حتى أبدأ في الثانية ثم التي بعدها، وكأن هناك من تـلاعب بأفكاري وأصبحت تعرف نوعًا من الفوضى أم لعلها عاصفة من التفكير تعمل على نقل الأفكار من مكان إلى آخر وتحاول جاهدة حمل ما خف منها لترســو بها في ركن الذاكرة. قالت الأم رغبة منها في إبعادي عما يدور

في رأسي: سبحان الله كلما كبرت يا عصام تجلت صورة والدك، إنك تشبهه بشكل كبير وجه مصغر له؛ لكن العينين تشبهان جدك رحمه الله. توقفت والدتي عن الكلام، ولم تتوقف عن التدقيق في ملامحي انتبهت إلى أنها عندما تكلمت عن أبي لم تقل شيئًا ولكن ما إن جاء ذكر جدّي على لسانها حتى دعت له بالرحمة، أهو يقينها ببقائه على قيد الحياة؟ أخرجتني من حيرتي بسؤال عن جدي:

-عصام، ترى هل لا زلت تذكر جدك يا ولدي؟

هناك أشياء تلازمنا يا والدتي، ولا يمكن أن تمحوها الأيام أذكر جدي وهو عائد في الصباح الباكر من المسجد الذي كان يبعد عن بيت العائلة الكبير أذكره وهو يتكئ على عصاه، عندما يسأله أحدنا عن سرّ العصا التي ترافقه فجرًا كان يجيب: عصاي تتكئ عليها سنوات عمري الثمانون، وأهش بها على من يعترض سبيلي من حيوانات... ويبتسم في وجوهنا وهو يطلب الإسراع في الجلوس حول مائدة الإفطار. كما أذكر تلك الخادمة العجوز التي لم تكن تغادر بيت جدي كان الكل يحبها رغم أنها أحيانًا تقول كلامًا لاذعًا كسم العقارب هذا ما كنتِ تصفين به

كلامها، وتقولين أن البيت لا يستغني عن خدماتها، وأنها من قامت بتربية كلّ من والدي وباقي إخوته. تبتسم الأم، وتقول:

ـ كانت أيام العز، وهذه طبعًا لا تنسى.

-حتى ما نحن عليه اليوم لن ينسى يا والدتي.

تحاول تغيير مجرى الحديث، وتبدأ كعادتها في تقديم النصائح:

-يا ولدي الحياة بسيطة، ولا تتطلب منا الكثير من الجهد لنعيشها في سلام؛ كل ما في الأمر أنه على الشعوب التي بيدها القرار أن تتركنا نعيش في سلام، أما عن باقي الأشياء التي تتعبنا في هذه الحياة من مواقف أو أناس استعصى علينا إرضاؤهم لا بد من تركهم والتخلي عنهم كما نفعل بالأشياء القديمة، وجودها في حياتنا فيه ضرر لنا وزيادة من المتاعب، ونضطر بين الحين والآخر لتغيير أماكنها دون جدوى، وقد نعمل على تنظيفها بين الحين والآخر رغم عدم حاجتنا لها هذا شأن الأشخاص الذين لا فائدة ترجى منهم. أنا لا أقصد أن العلاقات بين الناس

يجب أن تكون مبنية على المنفعة؛ ولكن لا بد من إعمال العقل لأنهم لو ظلوا في حياتنا وإلى جوارنا سينغصون علينا حياتنا أكثر، ولن يرضوا عنا مهما قدمنا من تنازلات. لا شيء يستحق أن نفني العمر في التفكير فيه، بعد التغيير الذي وقع في حياتنا كل الأشياء أصبحت تتساوى لم يعد لشيء أهمية، الوطن والأهل هم أكبر فقد فلا تبالِ بمن فقدتهم بعد ذلك؛ أنا لا أقصد بكلامي هذا أن يصبح قلبك قاسيًا يا ولدي. كلا، ولكن كي تتضح لك الأمور أكثر، ولا تتعب نفسك في أمور لا تستحق. سرحت قليلًا مفكرة، فقال عصام:

-أين أنت يا أماه؟

- أنا هنا يا ولدي إلى جوارك.

-أقصد أين سرحتِ من جديد؟

-آه يا ابني، لست أدري كلما تكلمت أسافر في الماضي، وأحكي أشياء مرتبطة به أتراني أصبحت مملة بكثرة الكلام عن الماضي؟ أم هو صمتي طوال اليوم وتعلق ذاكرتي بالأماكن وبالناس الذين عشنا معهم هناك يجعلني

أذكرهم كل حين، وربما كنت أحتاج إلى هذا الكلام لأنه يخفف علي وأشعر بعد ذلك بنوع من الارتياح لأني وإن كنت لا أريد أن أحملكم همومي، ولكني أريد أن أقتسم معكم كل ما يثقل علي.

-لا عليك يا أماه، الكلام ليس وسيلة للتواصل فقط بل هو نوع من العلاج، وقد قرأت ذلك منذ أيام في إحدى المجلات.

-القراءة يا ولدي أحسن أنواع العلاج؛ لذلك لا أريدك أن تبتعد عنها لا أريدك أن تضع معها قطيعة، احرص باستمرار على تغذية عقلك، في الماضي يا ولدي لم تكن المدارس منتشرة بهذا الشكل كان القدامى ينهلون العلم من الكتب فقط ويبحثون عنها في أي مكان ومهما كان بعيدًا.

-أعرف ذلك يا أماه كان جدي يحدثنا كثيرًا عن الطريقة التي تلقى بها دروسه في المسجد عندما كان سنه صغيرًا، وكيف بدأ بعد ذلك يقرأ بنهم كل كتب الفقه والسنة وباقي العلوم. لست أدري لماذا تخبرني بكل هذه الأشياء؟ ربما كنت تريدينني أن أشعر بالأمان أليس كذلك؟

-نعم يا ولدي.

-ومن أخبرك أني لا أشعر به؟! أنـــا أعلم أننا نجتاز محنة، ومحنة ليســـت بالهينة، ولكن يقيني يخبرني أنها مجرد امتحان، وهذا الليل لا بد له من نهاية لا بـد بعدما يكثر السواد في السماء أن ينقشع الضياء. يتكلم عصام ووالدته تتابع حركات شـــفتيه، وهي تتأمل كيف تغير ولدها وكبر وأصـــبح يتكلم بحكمة والده وبفطنته، نعم هو الذي لازمه في الطفولة، ورسخ فيه كل الأشياء التي كانت تصدر عنه حتى حركات يـديـه ونظراتـه الواثقـة، وهو يتكلم بيقين المتبصـــر العالم. انتبه عصام إلى سرحان والدته من جديد مرر يده بالقرب من عينيها، وقال:

-عودي إلى هنا يا أم عصام.

ابتسمت بعدما انتبهت إلى حركاته، وقالت:

إني أســمعك، هيا اســترســل لا تتوقف. ضـحك عصــام، وأضاف وهو يثير بسبابته:

-لكن حذارِ أن تغادري المكان ثانية! ابتسمت، وهي تنفي بحركة من رأسها، وقالت في حسرة:

-عندما تدمرنا الحرب تدمر معها كل آمالنا وأحلامنا وحتى مشاعرنا تدخلنا بالرغم منا في متاهة لا مخرج منها نتجرع ألوانًا من اليأس والحرمان، وتعمل على تكسيرنا بجبروتها إلى قطع صغيرة ترمي بها في أنحاء المعمور يصعب على الأيام مهما قدمت لنا من بلسم أن تضمد جروحنا، وأن تجمع شتاتنا وتعيد الآمال من جديد ليسكن أعماقنا، بفقدان أهالينا فقدنا قوتنا وتضامننا، وبغياب والدكم فقدنا بصيص النور الذي نستدل به للخروج من المتاهة للوصول من جديد إلى بر الأمان..

ـ توقفي يا والدتي، ما هذا التشاؤم؟ أين قولك لنا أنه سيعود إلينا حتمًا وبكل تأكيد، وربما كان في بلد آخر وينتظر الفرصة المواتية للحاق بنا، أين كل الذي قلته عن يقينك في عودته إلينا سالمًا؟

أم كل ذلك كان مجرد كلام؟ أم كان فعلًا يقينًا منك بعودته يومها، وتلاشى اليقين مع مرور الأيام؟

ـ يا ولدي إن غيابه عنا بهذا الشكل، وهو الذي لم ينم ليلة خارج بيته يشعرني باستمرار بالوحدة، ويعيدني إلى تلك الحرب اللعينة التي كانت سببًا في تشردنا وما حل بنا

وببلدنا، ألا تريد بعد كل هذا أن تمر ســحابة الحزن في سماء قلبي.

-لكني لا أريد أن أراك حزينة؛ فأنت كل الماضي والحاضر والمستقبل أنت كل أهلي.

يتوقف عن الكلام ربما رحمة بوالدته وإشــفاقًا عليها من البكاء لكنها بدورها عمدت إلى تغيير الموضــوع ولنفس الأسباب.

****

في الليل ظلت عيناه شاخصتين في سقف الغرفة دون أن يحدث أي صوت أو حركة، كان ضوء القمر يتســـرب من النافذة يســـاعد على تبين ملامح الأشـــياء في الغرفة التي تجمعه مع والدته وباقي إخوته، كان يفكر في كل شيء، كما كان يسعد بنوم كل من حوله، كان لا يشغل باله شيء بقدر أن يضـــمن لهم حياة كريمة، ظل يقلب كل المواضـــيع في رأســـه دون أن يتململ في مكانه خوفًا أن تنتبه والدته التي تنام بعيون مفتوحة كما يقول عنها تحسّـــبًا لأي طارئ، الرعب الذي عا شته جعلها لا تعرف الراحة ليلًا ولا نهارًا، لم يكن يريدها أن تعلم بأرقه وينشغل بالها. يكفيها ما تعانيه في صـــمت، ولو علمت بقلقه وتفكيره في العمل الذي سيقدم عليه. لم يكن واثقًا من حسن نية صاحب العمل وقرر أن ينتبه إلى كل صـــغيرة وكبيرة حتى لا يقع وصاحبه في مصيدة قد يقع فيها أحدهما أو كلاهما قرر أن يســـتعمل ذكاءه ونباهته ولا يغفل عن أي شيء يمر أمامه دا خل المطعم ريثما تظهر له حســـن نية رب العمل من عكسه.

والدته في الجانب الآخر من الغرفة بالقرب من الصغار لم يغمض لها جفن كانت ساهرة بدورها تفكر كما هي عادتها. رغم التعب الذي تتعبه خلال اليوم يصعب على النوم أن يجد طريقًا سهلًا يسلكه إلى جفونها، كانت ترتاح لهدأة الليل وسكونه لأنها تفكر في هدوء وتفتح أبواب الأمل على مصراعيها في عودة زوجها سالمًا إلى أحضان أسرته، كما تحلم بالعودة إلى بلدها وقد استقرت كل الأوضاع ووضعت هذه الحرب اللعينة أوزارها، وعاد كل الذين نزحوا عن أرا ضيهم، تبتسم عندما تصل إلى هذه النقطة لكن نفسها تعود لتنقبض عند ما تتذكر الخراب الذي حل بالأرض، وكم يلزم من الوقت لإعادة الحياة إلى بلد نزف كثيرًا ويستحيل أن تعود كسالف العهد ستعود لكن بملامح تحمل آثار حرب عمياء؛ حرب شوهت كل جميل، ولطخت بالسواد كل ألوان الحياة، وحفرت عميقًا آثار المأساة في القلوب، حتى نظرات الناس ستتغير بعدما سكنهم الخوف وملأ أعماقهم، الناس قد شاخوا بعيدًا عن أوطانهم، وحل الخراب بأعماقهم كما حل ببلدهم فمن بمقدوره ترميم ما حل بالنفوس؟ وماذا عن أولئك الذين قضوا في طريق اللجوء أو في أعماق البحار، أو على أراضي

أخرى...؟ وتلك الوجوه الصغيرة الجديدة التي جاءت للدنيا آه سيظل هذا الوطن ينزف لعقود أخرى حتى لو توقفت هذه الحرب الظالمة، حتى لو تمت العودة وتحقق الحلم، سيكون في كل بيت وجع وألم. كيف يسعد الناس بعد أن فقدوا أحبة لهم؟ كيف يسعدون وهم يجترون كل مساء ما مروا به، وما مر بهم من محن على أرض وطن آخر بعد ما لفظهم وطنهم؟

ولن ينسى من سلك الصحراء تلك المعاناة وتلك الأحداث المهولة التي تعرضوا لها قبل أن يتمكنوا من اجتيازها. متى ينتهي هذا الواقع المرير الذي نعيشه ويأتي علينا ضوء النهار ساطعا بأمل كبير نعود فيه إلى أوطاننا نجمع ما تبقى من شملنا نجمع شتاتنا من باقي الأوطان ومن حدود البلد البئيس، ونبكي موتانا ونضمد جراح بعضنا بكلمات مواساة. نحن نعيش على ذكريات الماضي ونتحسر على ما حل به نعيش هذا الواقع المتردي ونتطلع بخوف وحذر نحو مستقبل مجهول.

الإحساس بالتشـرد يملؤنا، نعم الإحساس بالضياع يشدنا إلى الماضي بقوة، كل الأحداث تطل علينا على امتداد الوقت ومن كل الفجوات أصبحنا نعيش فيها و بها.

****

في صباح اليوم التالي قام عصام من مكانه متثاقلًا على غير عادته، لم يشأ أن يغادر فراشه بعدما قضى الليل يفكر في حاله وفي العمل الذي عرض عليهم، كانت والدته تعلم بما يجول في فكره لم تشأ أن تشوش عليه ابتعدت لتهيئ الفطور وهي تنتظر القرار الذي سيتخذه دون تدخل منها لم تكن تشاء أن تفرض عليه شيئًا معينًا كانت تريده أن يتحمل مسؤولية اختياره بعدما توضح له جميع النقاط كانت بدورها تعرف أن الحياة يلزمها الكثير من المغامرة، ولكن خوفها على ابنها كان يجعلها تأخذ الحبل من الوسط، وتنظر قراره.

كان يعلم موقفها، ويعلم أنها عندما تطلب منه صلاة الاستخارة فهذا دليل على عدم قدرتها على اتخاذ موقف معين لذلك علينا أن نستخير الله تعالى لأنه من سيتولى أمرنا ويرشدنا إلى طريق الصواب لكنها في الوقت نفسه تبقى مترقبة للنتيجة.

أخيرًا سمع له صوت بعد طول تفكير، وقال:
ـ توكلنا على الله.

نزلت كلماته بردًا وسلامًا على مسامعها، وإن كانت قد أحست برجفة تسري في أعماقها.
-ماذا، أيكون قد أخذ قراره وسيتوجه فورًا إلى العمل، أم تراه سيعود للمرصيف كما يفعل كل يوم؟
تظاهرت بانشغالها، وبعد قليل رأته يعود ليستقبل القبلة كانت تعلم أنه قد صلى الفجر والصبح باكرًا إذن صدق حدسها سيصلي ركعتي الاستخارة، وبعد ذلك سيرى ما يفعله.

بعدما فرغ من صلاته توجه نحوها، واحتضنها وهو يقبل رأسها.

أبعدته قليلًا، وقالت بهدوء وهي تنظر إليه نظرة متفحصة:
-ما الأمر ؟ لا بد أن بالك مشغول بأمر ما.

أخذها تحت ذراعه، وجلسا في ركن الغرفة بعيدًا عن باقي إخوته، وقال:

-لقد اخترنا قبول العمل عند السيد. تصوري يا والدتي لقد قامت والدة سالم بتقصي الحقائق والمعلومات الكافية عن الرجل، والغريب أن سالمًا دائمًا

يقول عن والديه أن لا هم لهما سوى المال بغض النظر عن مصدره. ولكنها المسكينة سألت وتقصت وعرفت كل صغيرة وكبيرة عن السيد.

أجابت الأم بحكمة:

-رغم فقرهما ورغم كل ما قلته عن والديه إلا أن الأمر عندما يتعلق بفلذات الكبد تتغير النظرة للأشياء وتشتغل جميع الحواس لحمايتهم من كل سوء. انتبها إلى تصرفاتكما لكي لا تثيرا شكوك الرجل الذي فتح لكما بابه.

-كلا يا والدتي، ألا تعرفين ولدك؟

-أجل أعرفك، ولكن ماذا عن سالم؟
-أصبح لا يفعل إلا ما أوافق عليه، صحيح هو يكبرني قليلًا ولكنه يثق في أفكاري، ويحترمني كما أنه يخاف علي كأخ صغير.

قرصت الأم ولدها من وجنته في حنو، وهي تقول:
-أعلم أنك على خلق يا ولدي، يا ليت والدك يراك ليزداد فخرًا.

نكس رأسه ودمعت عيناه. لكن أمه رفعت رأسه عاليًا، وقالت:
-لا أريد أن أرى دموعك، سيعود يومًا إحساسي يخبرني بذلك.

قال الابن:

-ألا ترين أني خيبت ظنه في، ولن أصبح مهندسًا، ولا جراحًا ولا...

قاطعت:

ـ بالعكس يا ولدي أنت تحملت المسؤولية في غيابه، وهذا وحده فخر لنا ولك، ورسمت طريق إخوتك ليصلوا إلى بر الأمان، كما أنك رجل البيت الذي يعول عليه في غيابه، ولا تنسَ أنك لا زلت في بداية حياتك وربما أصبحت بدورك أكبر تاجر في يوم من الأيام ولم لا؟ القدر أيضًا يرسم طريقنا يأخذ منا القلم ليرسم نيابة عنا ويخطط بألوانه الزاهية خطوطًا تنير دربنا وتفتح في وجهنا أبواب الأمل وطبعًا يتفوق علينا، ورسمه يكون أبدع وأجمل، ولا تنسَ الله يا ولدي بيده كل شيء.

ـ ونعم بالله.

كان أول ما علينا القيام به هو شراء ملابس جديدة تتلاءم والعمل الجديد كان لا بد من رسم الابتسامة على وجوهنا تلك التي غادرتنا من فترة ليست بالقصيرة.

****

عندما بدأنا أول يوم عمل لم أعرف كيف أعبر عن شعوري؛ هل أحزن على أيامي التي قضيتها على الرصيف؟ أم أفرح بعمل يعيد لي جزءًا من كرامتي كإنسان؟ أم أترقب بحذر متى أصحو من حلم على واقعي المر؟ لأني لم أصدق بعد ما أنا عليه. كنت أتمنى أن يجود علي زماني بسخاء أكثر وأستيقظ على واقع أبهى وأجد والدي قد عاد إلينا، وأجد الحرب قد توقفت، ونبض الحياة قد عاد من جديد يتدفق وبقوة في شرايين الأرض التي سقتها دماء الأبناء.

أحسسنا بمتعة العمل الجديد بدأ الاستقرار يعرف طريقه إلينا، وبدأ الأمل يكبر يومًا بعد يوم خاصة بعد الوعود التي قدمها السيد بالبحث عن والدي في البدء اعتبرته ضربًا من الوهم كيف بإمكانه البحث عنه وأرض الله التي لجأ إليها السوريون كثيرة وكبيرة، كنت أقول لنفسي إنه يعتقد أنني طفل صغير ومن السهل إسكاته بأمنية كهذه، وقد لا تتحقق أبدًا لكني عندما علمت بعلاقاته المتشعبة مع أناس من كل البلاد، وأن له علاقات بأناس يعملون في الخارجية ويمكن بواسطتهم معرفة أسماء النازحين

السوريين المسجلين في اللوائح، ومعرفة أماكن إقامتهم كبر الأمل بداخلي في لقاء والدي من جديد. ومما كان يذكي نار إيماني بعودته إصرار والدتي على أنه لا يزال حيًا يرزق وأن إحساسها لا يخطئ أبدًا.

ذات مرة ونحن نتناول وجبة الغذاء بعد ما خفت أقدام الوافدين على المطعم، وقد بدأت الشمس تميل نحو المغيب لم نكن نشعر برغبة أكيدة في الأكل لأننا قبل أن نبدأ العمل نتناول وجبة فطور دسمة تحضرها لنا السيدة عائشة التي كانت تشتغل في التنظيف كنا نستمتع كثيرًا بحديثها الطيب الذي تملؤه بالحكم والنصائح رغم لهجتها المغربية الغريبة عن المنطقة التي اعتدت على لهجتها إلا أنني كنت أفهم جل كلامها وأضحك ملء فمي لنكتها التي لا تغفل عن إقحامها بين الحين والآخر مما يضفي لمسة جميلة على الفطور إضافة إلى لمستها التي حملتها في طريقة تهيئة الوجبة، وكان السيد غالبًا ما يشاركنا فطورنا مدعيًا أنه يحب فطور السيدة عائشة، وأن لا مثيل له فتجيب بكل تواضع: هذا من فضل خيركم.

كان السيد يقصد التواضع في تعامله معنا لم يشعر مرة الخدم بالدونية لست أدري من أية مدرسة تعلم هذا الكم من السمو في الأخلاق إلى أن فتح صدره لنا مرة وقال: أنه لا يختلف عنا كثيرًا، وأنه قبل عشر سنوات كان لا يحتكم على شيء، لم نتجرأ يومها على سؤاله لأن السيدة كانت لا تترك فرصة للتنويه بأخلاقه وتواضعه. لكن وقت العمل كان يبدو صارمًا ويعيد على مسامعنا باستمرار: لا تنسوا نقطة مهمة في عملنا؛ الزبون هو السيد تعاملوا معه باحترام، وانتبهوا إلى كل طلباته يجب أن يخرج را ضيًا كي يعود إلينا ثانية إنه المرآة التي تعكس صورة المطعم، كما أنكم من تعملون على تلميع تلك المرآة بعملكم وإخلاصكم وحبكم لعملكم، لا تنسوا أننا جميعنا نعيش من عائدات هذا المكان، وإذا تقلص حجم العائدات انعكس سلبًا علينا، وإذا كان الدخل جيدًا من البديهي أنه يعود علينا بالنفع. نجد كلامه مقنعًا ونزداد تفانيًا وإخلاصًا في العمل.

كانت الخالة عائشة توزع الابتسامة بسخاء، وعندما تنتهي من التنظيف تجلس إلى جوار نا في المطبخ تأ خذ

الســـكين وتقول لي انظر هكذا تقطع (البطاطا) كي لا يذهب جزء منها مع القشور؛ وهي تشرح لي الطريقة تقوم بملء الصـحن منها فنضـحك، كانت تريد مسـاعدتنا لا غير إنها طيبة وقلبها أبيض كلون منديل رأسـها كما يقول عنها سالم.

كانت تتدفق الدعوات من فمها دون توقف، سالم لم يكن يهتم بدعواتها كثيرًا بينما كنت أظل طيلة الوقت أردد: آمين، آمين، كانت تتعاطف معنا كثيرًا وأحس بها تتأخر في المطبخ من أجلنا فقط حتى ســالم الذي كنت أجده في البـدايـة لا يفرق بين النـاس قـال كلامًـا كلـه حكمـة: -لقد غير الســيد فعلًا نظرتي للأغنياء؛ بعد ما كنت أهابهم، وأظنهم قد شـيدوا لأنفسـهم برجًا عاليًا يعيشـون بداخله مترفعين عن كل البشـــر، ووالدتي بدورها كانت تقول عنهم باســتمرار خاصــة عندما تســمع أن أحدهم تعرض لســـرقة من أحد اللصوص، هذا جزاؤهم كي يتعظوا ويعرفوا أن تـــرفعهم واعتبارهم الفقراء مجرد حشـــرات يدوســـون عليها من غير أن ينتبهوا إليها ها هم الفقراء يسلبونهم ما بحوزتهم، كنت أنتشـــي وأردد: والدتي محقة.

لكن اليوم بعد الذي رأيته من نبل هذا السيد تبدد كل الكلام الذي سمعته، وكل النعوت التي نعتوا بها، لأني وجدت فيهم من الطيبة والكرم والإنسانية الشيء الكثير كل ما هناك أن الفقراء ينظرون إليهم نظرة ملؤها الحقد والكراهية والآخرون يعيشون في عالمهم ونظنهم لا يشعرون بنا.

****

كنت أجلس بعد ساعات العمل إلى جوار السيد في المقهى، لست أدري أكان يرتـــاح أكثر للكلام معي أم كوني لاجئًا سوريًا جعله يخصص لي مكانًا في قلبه، كان يفضـــي لي في أحيان كثيرة بأشياء مرت به في غربته كما كان يحكي كثيرًا عن حياته، ومعاناتـه مع البؤس وما تحمله من شقاء منذ نعومة أظافره طيلة ســنوات طفولته كنت أســتمع له وأنا أدير الملعقة في فنجان قهوتي من غير أن أضــع قطعة الســكر كنت أســترجع مع معاناته طفولتي الرائعة التي لم تدم طويلًا كأني عشتها في الأحلام، عندما يصل بكلامه إلى نقطة أحس بمقلتيه ستنفجران أحس بتلك الغصة في صــوته لكنه يتغلب عليها برشــفة من فنجانه، كنت بدوري أحمل الفنجان في يدي لأختفي وراءه. بعد مرور الأيام توطدت علاقتنا أكثر وبدأ يحـــدثني باستمرار عن الرجل السوري الطيب الذي كان له الفضل في التغيير الذي طرأ على حياته بشــكل كلي بدأت أســتوعب مدى إخلاصــه للأيادي التي قدمت له معروفًا ولو كان نصــيحة بســيطة، ولذلك تجده كلما التقى بأحـــد غريب يحضنه وما بالك لو كان من سوريا فهو من بلد الرجل الذي قدم له الـشـــيء

الكثير وإن كان مجرد كلام لكنه وفاء بما قدم له يقول السيد:

-كلام الرجل كنت أجده مدرسة آخذ منه ما لم أتعلمه في سنوات عمري الماضية، كان يقدم الفكرة ويصـــر على أن نفهم ما يرمي إليه فتح أعيننا على ســياســة الدول العظمى كما ينعتوذها يقول أذها عظمى بنهبها لخيرات البلدان الأخرى، عظمى لأنها تقدم لأبنائها اللقمة التي اختطفتها من فم الأشــقياء في بلدان العالم الثالث، عظمى لأنها لا تعترف إلا بِعِرْقِها وما عدا ذلك فهم عبيد، وعليهم أن يخدموها بأبنائهم وخيراتهم وأنهم ما وجدوا إلا ليخدموهم كان يصـــر على أن نعود في أقرب وقت إلى بلادنا يقول: لا تنتظروا إلى أن تعودوا جثثًا على متن طائرات إلى بلدانكم، لا تنتظروا إلى أن تصـــابوا بجميع أنواع الأمراض بـدءًا بالشيخوخة؛ الوطن هو الأرض التي تستطيع أن تأخذ فيه قرارك وتنفذه على أرض الواقع، وكل حقوقك محفوظة كان يتأســف بعدها ويقول: بالنســبة لمن حال بلدهم كحال ســوريا للأســف ضــاع الوطن وضــاعت معه كل الحقوق. عودوا في أقرب فرصــة يكفيكم أن يصــبح في حوزتكم

ما يجعلكم تبدأوا في مشـــروع صغير، وتأكدوا أنكم لو سلكتم أقصر الطرق سيزكي الله تجارتكم ومشروعكم، لقد سألته مرة يا عصام أستفســـر عن أقصر الطرق ربت على كتفي، وقال بصـوت كله موعظة: أقصـــــر الطرق هو الطريق المســـتقيم، لم يقف عند ذلك بل تناول قلمًا من جواره وبدأ يوضح أكثر ونحن ننظر إليه، قام برسم نقطتين متباعدتين وقال موجهًا كلامه إليّ وإن كان الجميع يسـتمع ويســتفيد قائلًا: انظر معي جيدًا لما ســأفعله: الآن أريد الانطلاق في اتجاه النقطة الثانية بدأ يراوغ في طريقه ثم يعود ثم يســير وهكذا رســم طريقًا فيه عدة منعرجات والتواءات وأخيرًا وصل إلى النقطة المقصودة. قال بعدها:

-والآن ســتكون وجهتي أيضًــا نفس النقطة، أخذ يرســم خطًا مستقيمًا. وضع بعدها القلم، وقال:

-في رأيكم أي الطرق أقرب؟ أجبنا بصوت واحد:

-المستقيم. قال بعدها:

-أظن الفكرة وصلت. قلنا:

-أكيد.

ومنذ تلك اللحظة وقبل أن أمد أول خطوة أستحضر شرحه وكلامه، وأقول متسائلًا: أي الطرق أقرب إلى الهدف فأجده بسرعة وأصل بتيسير من الله.

كان الرجل يتكلم وعصام يتابعه بكل دقة، وقال بعدما صمت: لست أدري كيف يملؤني إحساس بالغبطة وأنت تحدثني عن هذا الرجل، أحس به قريبًا مني أحس وكأنك تحدثني عن والدي.

-حدثني عنه أكثر لو سمحت.

كان يقول باستمرار:

- سوريا رمت بنا خارج حدودها ربما خوفًا علينا، وربما رفضًا لنا لأننا لم نقو على المواجهة، لأننا جبناء، هل فعلًا نحن كذلك؟ وماذا بوسعنا فعله؟ وكيف نواجه الحرب العمياء؟

يصمت، ويضيف:

-يجتاحني هذا الليل كأنه موج من الظلام يعلو فوق كل شيء عندما يبدأ حديثه عن الليل والظلم والظلام، كنا نتوقف عن سؤاله ونتركه لشجونه وذكرياته. يعود السيد

ليسأل عصامًا رغبة منه في تغيير الحديث: كيف وجدت العمل في المطبخ؟

-اليوم فقط أعرف كم كانت مزعجة تلك الوقفة عند إشارة المرور، أصوات السيارات والشاحنات من جهة، وسخط المارة وتذمرهم من جهة أخرى، وأ صوات الفرامل بين الحين والآخر، وأحيانًا اصطدام وشجار لا ينتهي إلا بأ صوات السيارات المزعجة من كل جانب. آهٍ يا سيدي لا يعرف الإنسان قيمة الهدوء إلا حين يفتقده، في هذا المكان تستطيع أن تشتغل وأنت تفكر بهدوء. صحيح هنا توجد الخالة عائشة وهي تتكلم كثيرًا لكنها تعمد بين فجوات كلامها إلى تقديم النصائح وإذا رأتك غارقًا في صمتك تقرأ من تقاسيم وجهك ما يختلج في صدرك وأي بحر تسبح فيه، وربما تقصد بكلامها أن تمد لك يد العون لتنتشلك من بحر همومك تحاول جادة بطريقتها وطيبة قلبها إخراجك مما كنت غارقًا فيه، وتمدك بطاقة من الصبر بنصائحها القيمة التي رغم بساطتها إلا أنها اكتسبتها من طرقات العمر الشائكة كما تقول عنها باستمرار. كما يوجد سالم بخفة د مه، و باقي العمال الذين وإن كانوا يشتغلون في

صمت إلا أنهم لا يكنون لنا أية ضغينة، ولا همّ لهم إلا العمل بإخلاص. آهٍ من تلك الروائح التي تنبعث على امتداد الوقت من الحافلات والسيارات لتسكن أنفا سنا فلم تعد تعرف طعمًا للهواء النقي. صحيح المطبخ لا يخلو من روائح اختلطت فيما بينها؛ كالبصل، والثوم، والتوابل، واللحوم، والأسماك، والد جاج... واقتحمت أنفك رغمًا ع نك طول الن هار لكن ها أرحم بكثير من الروائح التي تنبعث من دخان السيارات. جميل تحليلك يا عصام ألم أقل لك أن كلامك لا يختلف كثيرًا عن الكلام الذي سمعته من السيد أيام غربتي، لست أدري ربما ثقافة الشام واحدة وربما شربتم من نبع واحد؛ كان كلما حاولنا معه أن يخرج معنا إلى مكان في يوم العطلة يرفض ويبرر امتناعه قائلًا: ـ الهدوء يساعد بشكل كبير على التركيز، والتفكير، وترتيب الأفكار، كما يجعلك بدورك هادئًا مُتَّزِنًا وتعرف كيف تصدر قراراتك دون أن يكون هناك أي ضغط من أية جهة. عصام مقاطعًا: ـ وهذا رأي والدي أيضًا.

اليوم فقط أعرف قيمة ا لهدوء وأعرف لماذا كان يعطينا مثالًا بالمستشفيات النفسية التي اختاروا لها مكانًا هادئًا

بعيدًا عن أي ضجيج وسط الطبيعة؛ لأنها تساعد بهدوئها مع جرعات الأدوية على علاج الاضطرابات النفسية للمرضى.

التحق بهم سالم، وجلس على كرسي إلى جوارهم، وبدأ يستمع بدوره لما يدور بينهما من حديث دون أن يقول شيئًا.

قال السيد:

-سأخبركم بقصتي رغم فارق السن بيننا ولكن ربما وجدتم فيما سأحكيه لكم عبرة وفائدة تساعدكم على الصبر والعمل والتزود بالأمل في المستقبل. من فترة ليست بالقصيرة تركت الفقر خلفي في قريتي النائية، بدأت أول الأمر بالعمل عند تاجر خضار كان قاسيًا لكنه لم يأكل يومًا عرقي، ولم أتعلم منه غير الإخلاص والتفاني في العمل صحيح أن الحياة مدرسة. بعملي معه وإن كنت في بادئ الأمر مجرد حمال للبضاعة من المرآب للشاحنة ومن السوق للعودة بها على الشاحنة إلى المرآب من جديد لكني تعلمت منه كيف يحافظ الإنسان على نقوده التي يكسبها بمشقة من الضياع،

كيف لا يدخنها في سيجارة تؤدي به يومًا إلى إتلاف صحته ورزقه معًا، عرفت منه كيف أفرق بين البيع الحلال والربا كلما حاولت أن أخبره أنه باستطاعته أن يربح أكثر لو فعل كما يفعل فلان أو فلان نهرني قائلًا: الله يرانا يا ولدي، أصبحت أخلص له العمل وأتوق إلى أن أصبح في يوم من الأيام بائع خضر بالجملة، كان حلمي بسيطًا يومها يقتصر على الأسواق والتنقل إليها بالخضر عبر شاحنة صغيرة. عندما غرفت منه الصدق تعلمت كيف أسدي النصائح بدوري وكسبت حب من كان يأتي لشراء الخضر أصبح الرجل مع الأيام بدوره شديد الثقة بي، وبدأ يتركني وحدي في المحل أدبره بمعرفتي ويذهب لقضاء مآرب أخرى. مرت الأيام، وأصبح التاجر صهري لم أتزوج ابنته كلا ولكني تزوجت من ابنة أخته، سافرت في فرصة إلى أوروبا على متن شاحنة طبعًا بطريقة غير شرعية وهناك عملت في عدة أعمال إلى أن التقيت بالسيد الطيب في أحد المطاعم حيث كنا نشتغل جنبًا إلى جنب. كانت تعجبني حكمته وقوة إيمانه، كنا نستمد منه الطاقة على الصبر، في البداية لم نجرؤ أن نسأله عن تفاصيل حياته لأن كل شيء كان واضحًا

-الحرب على سوريا.

-فهو لاجئ سوري ربما فقد كل عائلته، وربما تشـــردوا بدورهم. لم يرغب أحد منا على النبش في جروحه لكنه كان حكيمًا في كلامه كلما رآنا نشــتكي هم الدنيا يقول لنا وكأنه يحكي عن معاناته:

-مواقف عديدة نمر منها تكسـرنا إلى أجزاء صغيرة، وهناك من المواقف ما نظنه أتى علينا بشــكل كامل، ولن نعرف بعدها طعم الحياة من جديد لكن بعزيمتنا ورغبتنا في الحياة والطاقة والشحنة من الأمل نستمد حب البقاء، وكيف نستمر في الحياة ولا نستسلم فنعمل ما بوسعنا لنتمكن من الوقوف من جديد كأننا لم نتكسر من قبل. يبقى الأثر يسكن الأعماق، وقد تبقى الخدوش وربما الجروح الغائرة لكننا نترك أمرها للزمن ليتكلف بترميمها وبتضميدها ومحو ما استطاع أن يمحوه. عدت بعد سنوات من الغربة، وبعدما أصبح لدي مبلغ من المال أستطيع أن أبدأ به بداية صحيحة عدت تحت إلحاح السيد وعملًا بنصائحه، كان لا يفتر يذكرنا بالوطن. عدت إلى المدينة التي عملت فيها حمالًا، ولم تنصفني يومًا

كما لم ينصفني سكانها، عدت إليها وكان بمقدوري أن أحمل عائلتي إلى مدينة أخرى أجتهد فيها ليصبح لي اسم دون أن يعرف أحد بمعاناتي مع الفقر، ربما عدت لغرض في نفسي، نعم عدت لأقول لهم ها هو الشاب الفقير عاد من جديد لكن عاد رجلًا وصاحب ثروة، وربما عدت لأن الحنين ظل يشدني إلى أناس تعلمت على أيديهم أشياء كثيرة.

****

في طريق عودة عصـــام إلى البيت كان لا يزال تحت تأثير كلام صاحب المطعم. نظر عصام إلى السماء بعدما تسللت إليه حزمة من نور من وراء غمامة كان يختبئ وراءها قرص الشمس المائل إلى المغيب، وقال بهدوء:

-سـبحان الله وكأني بالشـعاع يخبرني بأشـياء عن والدي ربما يبشرني بوجوده على قيد الحياة، وربما يبشرني بأحسن من ذلك قد ألقاه قريبًا ألم يعدني الرجل الطيب بالبحث عنه. كان الرجل طيبًا يعامل جميع العمال بلطف كما أنه لا يغيب عن مكان العمل إلا في أوقات معينة تقل فيها أقدام الزبائن أو يوم الاثنين عطلته الأسـبوعية وأحيانًا يحضـر يوم الاثنين في أوقات الوجبات؛ لأنه يشرف بنفسه على راحة رواد مطعمه تجده يدور بين الحين والآخر بين الموائد يرحب بالزبائن بابتسامة لا تفارق محياه، كما يقدم الجبن هدية لرواد مطعمه. وكلما امتنع أحدهم عن أخذه بدعوى أنه لم يطلب جبنًا

يبتسم النادل ويقول:

-تلك هدية صاحب المطعم. لكن رغم طيبة قلبه وكرمه ودشاشة محياه إلا أنه في أوقات كثيرة يكون صارمًا مع

العمال يعيد على مسامعهم باستمرار الزبون هو الآمر هنا، أجل هو السيد كلنا نشتغل عنده؛ الترحيب والابتسامة لا تكلف كثيرًا فلا تبخلوا بها على الزبون، والأطفال الصغار هم أحباب الله، لماذا لا تقدموا لهم ما يريدون عند ما يكونون بصحبة آبائهم؟ كنت أسرح في ما يقوله وفي تفاصيل وجهه وكأني أرى والدي يتحدث فأقول أين تعلم هذا الرجل كل هذا؟ أين تعلم طريقة التعامل مع الزبائن؟ وهل بمقدور الإنسان أن يرسم الابتسامة طول الوقت؟ لا بد من طاقة إضافية من السعادة تلك التي نفتقد إليها جملة. مرة دخلت عليه المطبخ كان الوقت لا يزال مبكرًا وجدته منشغلًا يرتدي بدوره وزرة المطبخ، وهو يخلط الحليب مع مواد أخرى، كان منهمكًا في التخليط.

-السلام عليكم. رد التحية من غير أن ينتبه إليّ عرف من صوتي من أكون لأنه ناداني باسمي، قلت له:

-هل تريد مساعدة يا سيدي؟ أقصد، هل أكمل عملية التخليط؟ فأجاب دون أن يتوقف عن العمل:

- شكرًا لك ولدي، هذه مهمتي أنا، قد ألقنك في يوم من الأيام طريقة صنع هذا الجبن. اكتفيت بالصمت واتجهت

صـــوب المشـــجب الذي أترك عليه وزرة العمل، وكل ما يخصني، وأنا لا زلت أفكر في سر الخلطة التي كان منشغلًا بها ربما أعادتني إلى صور أحتفظ بها في ذاكرتي الصغيرة، ربما أعادتني في رحلة إلى الزمن الذي انمحى كما انمحت كل معالمه، وبقيت الذكريات وحدها نتجرعها فيؤلمنا مذاقها رغم حلاوة تلك الأيام، لكن ما كان يؤلمنا هو الأمل الضئيل في عودتها، وإن عادت ستعود بحلة أخرى، لا طعم لها كما كان الأمر عليه في الماضي. عدت لأقف بجانبه أنتظر الأوامر، كنت أعلم ما علي فعله جيدًا لكن في حضـــرته لا بد من تلقيها منه مباشرة أقصد إن كان هناك جديد، بدل أن يأمرني بشيء قال:

-في الحقيقة يا عصام سر هذا الجبن احتفظت به لنفسي لا لشـــــيء إلا ليكون ميزة مطعمي، وأيضًـا لأنها هدية الرجل الطيب الذي علمني ما لم يعلمني غيره، لقد كان بمثابة الأخ الأكبر لي؛ كان يعطيني مجموعة من دروس الحياة، لا أخفيك سرًا تعلمت على يديه ما لم تعلمني الحياة طيلة الأربع عقود الســـابقة. لســـت أدري لماذا أحببت حديثه هذا الصباح ووجدت لدي رغبة في الاستماع إليه،

ولكن في الوقت نفسه خفت أن يعتبرني مهملًا لشغلي وأبحث عن وسيلة تمنعني من القيام به. حين توقف عن الكلام سألته:

-هل أبدأ سيدي بتقطيع الخضر، أم أرتب المقاعد أوّلًا ؟

ابتسم وأجاب:

-الخضـــــــر أوّلًا ، لأن بلاط المطعم لم تنته الخالة من تلميعه بعد.

-معذرة.

ابتسم، ورفع رأسه، وقال:

-أليس لك فضول في تعلم هذه الوصفة مع العلم أنها من بلدك، ولهذا السبب سأختارك لأعلمك إياها؛ لأني أعلم أنك ستخلص لها أكثر، وتتعلمها بسهولة، وربما تفوقت عليّ، وكانت أجود مما أقدم.

-حا شا يا سيدي، أنا مجرد تلميـــذ أتتلمذ على أيديكم.

-ما هذا يا عصام؟ تلميذ، ومعلم؟ هل تحسبنا في الفصل نلقي الدروس؟ نحن في المطبخ يا ولدي، وكل من كان أكثر دقة وله سعة صدر بإمكانه النجاح في الطبخ أكثر.

-أكيد سيدي، والأمر سيان بالنسبة لتلقي المعرفة في المدارس كلما انتبهت أكثر وأعدت الواجب مرات عديدة سهلت عليك مهمة التلقي.

-معك حق يا عصام، كل شيء يتعلم بالإتقان والتكرار. يا ليتني وجدت في سنوات الطفولة من يلقنني ما تلقيتَهُ.

-لا داعي للأسف على ما ولّى سيدي، فأنت في أحسن حال والحمد لله، السيء هو حين ينقلب حال المرء من حسن إلى سيء. فطن السيد أنه يقلب المواجع على عصام، ويعيده إلى التفكير في وضعه كلاجئ حرب فقد الأرض، والأهل، والأمن، والأمان، فقال مستدركًا:

-الحمد لله على كل حال يا ولدي، كل أزمة لا بد أن تنفرج، ولا بد أن يعود الاطمئنان إلى بلدك.

-إن شاء الله.

-عصام، قصة الجبن قصة طريفة تعلمته على يد الرجل الطيب القلب الذي حدثتكم عنه كثيرًا، كان وقتها يكبرني بأربع أو خمس سنوات لكنه كان يتكلم بحكمة الشيوخ، نعم ربما بسبب الظروف والمحن التي مر منها

لكن الجميل أنه كان متفائلًا دائمًا، كان يتكلم عن المستقبل كأنه مكتوب أمام عينيه يقلب الصفحات ويقرأ بكل ثقة كان يتعثر قليلًا عند ما يتعلق الأمر بأسرته التي لا يعلم عنها شيئًا سوى أنها دخلت بلاد المغرب. توقف عصام عن الحركة كليًا، وظل منتبها لكل كبيرة وصغيرة يقولها عن الرجل الذي كان برفقته. جمعتني به الأقدار في مطعم تركي بفرنسا، وكنت هناك لا أقوم سوى بغسل الصحون لمدة تزيد على الأربع سنوات إلى أن جاء الرجل ذات ليلة ورحب به صاحب المحل هو ومجموعة من السوريين النازحين عن الشام بسبب الظروف التي تجتازها البلاد، كان ذلك من حوالي خمس سنوات أو أقل قليلًا كان صاحب المطعم يتركنا في جناح خاص كقاعة للعمال ننام فيها لندخر ثمن الكراء، وأيضًا لنقوم بالعمل باكرًا في المحل، كان له تصريح بذلك لأن الجناح عبارة عن شقة صالحة لإيواء عدد من الناس، نحن كعمال لم نهتم إن كان الأمر قانونيًا أم غير قانوني، ولكنني طيلة فترة إقامتي عند الرجل لم يسألني أحد عن الوثائق، ولا عن محل الإقامة، صحيح لم أكن أغادر المدينة، ولكني كنت أتجول في أرجائها يوم عطلتي الأسبوعية، وفي فترات الأعياد

الخاصة بالدولة الفرنسية، أما أعيادنا فكنا نحتفل بها ليلًا في وليمة خاصة، وأحيانًا نستدعي إليها بعض الأصدقاء العرب الذين لا تساعدهم الظروف على الاحتفال، الحق أن صاحب المطعم كان يثق بنا ثقة بلا حدود كما أنه كان طيبًا. يقول عصام، وقد أخذ الكلام من السيد:

-وأنتم أيضًا لا تقلون طيبة عنه. يبتسم الرجل، ويقول:

-بصدق تعلمت من أولئك الناس الشيء الكثير حتى طريقة تعاملي مع الآخرين. قبل أن ألتقي بهم كنت أعيش نوعًا من الفوضى في كل حياتي، لم أكن أنتبه إلى الزمن الذي يتسرب مني؛ كان همي يتوقف على أن أجد ما أسد به رمقي، لم أكن أنتبه إلى طريقة كلامي، ولا إلى الأسلوب الذي أوظفه، كانت غايتي هي أن تصل رسالتي إلى الآخر، أن تصل ناقصة أو غير لبقة فذلك أمر لا يعنيني البتة، كما أني كنت سريع الغضب وأستعمل العنف في أبسط الأمور، لم أحتكم يومًا إلى استعمال العقل والتريث والتسامح، كانت قوة عضلاتي تساعدني على أخذ حقي. بصراحة يا عصام معرفة الناس ومخالطة الجيدين منهم ثروة لا تقدر بثمن، تصور الرجل السوري الذي كلمتك

عنه صـــاحب الجبن كل مســـاء بعد الانتهاء من العمل يتوضأ ويجلس للصلاة لساعات طوال يصلي ويرفع يديه بالدعاء لا يلتفت إلى أي كلام من حوله، أحيانًا وأنا أتابع حركاته أرفع عيني للســـقف حيث ينظر عرفت بعد ذلك أنه كان يخترق الســـقف بنظراته ويســـافر عبر الســـماوات يتبع دعوته وهي تصـعد إلى الله عز وجل، كان رجلًا كثير الإيمان. لم يكن وحده الذي يصـــلي ويجلـــــس للدعاء، ولكن جلسته كلما طالت شدت انتباهي أكثر، لا أخفي عليك كنت وقتها قد ابتعدت عن الصـــلاة، لا أنكر أني صليت في السنوات الماضية ولكني كنت قد قطعت الصلة مع الله لم أكن مرتاح البال للقطيعة التي وقعت، ولكني كنت أقول كل مرة بعدما تتحسن ظروفي سأعيد صلاة كل ما فاتني. لم أكن أعلم أن الصلاة جســـر بين العبد وربه، وأنها من ستعيد إلي الاطمئنان الذي غادرني، وأن بالصلاة تصلح أمور دنياي وآخرتي. يقاطعه عصام قائلًا:

كلامك يشبه كلام والدي.

هل والدك أيضًـا انقطع مثلي عن الصـلاة، ثم عاد إليها من جديد؟

-كلا، ولكن عندما يحدثني عن الصلاة يؤكد باستمرار على أنها جسر بين العبد وربه، وأن فيها صلاح الدنيا والآخرة.

-نعم يا ولدي، وهذا الكلام أيضًا سمعته بدوري من الرجل الطيب الذي كان يستغرق الساعات في الصلاة، أحيانًا كنت أستيقظ من نومي وأجده لا يزال راكعًا، عندما سألته مرة هل تأخذ قسطًا من الراحة لتقوى على العمل نهارًا أجابني بكل ثقة: الصلاة راحة للنفس، وإذا ارتاحت نفسك جسمك لا يحتاج وقتها إلا القليل. قال لي بالحرف: "عندما يناجي الإنسان ربه ينسى وجوده، وينسى حاجاته من هذه الدنيا الفانية يرتفع كثيرًا عن كل الأشياء التي لها قيمة مادية يعيش في عالم مليء بالروحانيات يغذي روحه فتشبع وتمتلئ بالخير". الرجل يتكلم وعصام يفتح فمه من الدهشة، وفي نفس الآن لم يرد أن يوقفه. أضاف:

-من يومها قلت كما قال: لا بد من طرد وسوسة الشيطان، لأنه يزين للمرء أشياء كثيرة. الجميل أنه لم يأمرني بالصلاة رغم علمه بابتعادي عنها؛ كان يتحدث عن

الصلاة وأنا أتشبع بكل كلامه وأحس بتأنيب الضمير، أحس أني مقصود بكلامه من غير أن يظهر ذلك في سياق حديثه. عصام لم يجد قدرة على الصبر وقاطعه قائلًا:

-إنه أبي، أجل والله هو أبي. ينظر إليه السيد ويقول كيف تقسم على أنه والدك؟ وهل هناك ما يدل على أنه هو؟ أتمنى ذلك يا عصام. معذرة أقصد أنه نفس كلام والدي. ما اسم الرجل يا سيدي:

- يا إلهي كنت أنادي عليه معلم الجبن طيلة المدة التي قضيناها معًا حتى بعدما رحل ظل في ذاكرتي باسم معلم الجبن. انتظر لا بد أن أستعرض أسماء باقي الأشخاص الذين كانوا معنا يومها، وأكيد سيأتي اسمه من ضمن الأسماء التي خزنتها الذاكرة من تلك الفترة.

-كيف كان شكله؟ كان نحيفًا له لحية خفيفة، نظرة عينيه فيها بريق.

-انتظر سأحمل لك في الغد صورة لوالدي.

-أرجو أن يكون هو.

-أكيد هو، كل الكلام الذي ذكرته يدل على أنه والدي.

-لا تعلق الكثير من الآمال يا عصـام حتى لا تصـدم، أنا أكبر منك وأعلم بالأمور، انتظر يا ولدي لا أ حب أن تصاب بخيبة أمل.

-أعرف يا سـيدي، ولكن الشـيء الوحيد الذي بدا غامضًا في القضية هو قصة الجبن، والدي لم يصنع الجبن مرة؛ كان يزاول التجارة، وقبل ذلك كان يـدرس إلى أن نال شـهادته الجامعية، أقصـد لو كان اشـتغل مرة بالجبن لأخبرتني والدتي بالأمر.

-أرأيت، ولهذا نصحتك بالتأني. ماذا يا عصام، هل نقضـي الصباح في الكلام أم نبدأ العمل؟

-معذرة يا سـيدي الكلام شـدني، وأحسـست بنوع من المشـاعر تخالجني، فركبت القطار إلى طفولتي. لا عليك يا عصـام، أنا بدوري رحلت إلى أيام الغربة أتفقد الأماكن والوجوه، وأستعرض تلك الذكريات، الحمد لله ننسـى كل ما هو قبيح ولا نتذكر إلا الجميل منها.

-أكيد، ولكن لا تنس يا سـيدي أن الجزء الآخر منها يرسـو في الأعماق ولا يطفو إلى السـطح لأنه ثقيل مثله

مثل الأجسام الثقيلة التي لا تقوى على أن تطفو فوق السطح، ولكنه يظل يثقل أعماقنا وإذا نبشنا فيه غابت كل الأشياء الجميلة من الواجهة، وظهرت جلية تلك التي كانت راسية في الأعماق. قال كلامه وهمّ بالمغادرة، وقتها خاطبه السيد قائلًا:

-لا تنس إحضار صورة والدك.

-نعم سيدي سأفعل بكل تأكيد. كان باقي العمال قد حضروا تباعًا والجميع يستعد لبداية يوم جديد، التحق بهم عصام وبدأ عمله بهمة لا يحدث أحدًا؛ كان منشغلًا بالتفكير يقلب من مكانه في دفتر صور والدته ويختار أي الصور سيحملها معه؛ لا بد أن تكون صورة فردية له أجل هناك العديد منها تلك التي كان يستعملها للبطاقات الشخصية، لا بد أن أحمل له صورة كاملة ليراه جيدًا ويتعرف على شكله وطوله، الصورة الخاصة بالبطاقة لا تتجاوز الوجه، ولكن الصور الأخرى بصحبة أفراد العائلة.

لا بأس أستثني التي تحمل صورة والدتي، وأختار أيًا كان لأن والدي لم يكن يسمح بالتلاعب بالصور وخاصة التي

تحمل صورة والدتي، لست أدري أي حب كان يكنه لها!؟ هذا أيضًا جزء من الثقافة ومن الدين، ولكن هذا الوقت كل واحد بإمكانه أن يلتقط لك صورة، كثرت الأجهزة ووسائل التصوير الصغير والكبير يقوم بذلك، الأمر أصبح من السهولة بمكان يكفي أن يضغط على زر لتكون الصورة جاهزة. المهم سآتي بالصورة الصغيرة، وإذا تعذر الأمر أقدم له الكبيرة.

-هيا يا عصام اشتغل بهمة ولا تفكر في الأمر الآن، لا بد من إتقان العمل أولًا ليكون الأجر حلالًا طيبًا. أليس هذا من نصائح والدك؟ عليّ أن أقول للسيد هذه النصيحة وأرى ردة فعله، لأنه لا يمكن أن يكون التشابه بين الناس كبيرًا لهذه الدرجة. ما بالك يا عصام، ألا تعلم بأن الأخلاق هي واحدة في كل زمان ومكان، ولا يغيرها إلا الأسلوب الذي تقدم به، أو اللغة التي تلقى بها، نعم الأسلوب، وهذا ما أريد أن أعرفه إذا كانت هي نفسها بنفس الأسلوب فهذا سيكبر به الأمل في كون الرجل والدي. تبًا كيف لا يذكر اسمه؟ لماذا لم أخبره باسم والدي، قد أساعده على التذكر. يا إلاهي كدت أنسى اسمه بدوري.

أكيد والدتي كانت تنادي عليه باستمرار أبو عصام، وأنا كنت أناديه: أبي، وباقي إخوتي أيضًا. عمتي، أجل كانت تقول والد عصام، أيعقل أن يأخذ الابن البكر هذا الحيز من شخصية الأب ويذوب اسمه معه؟ إنها تقاليدنا في المشرق. هنا في المغرب كل واحد يحتفظ باسمه، هذا جميل، ولكن ذلك أجمل، ومع ذلك لا يمكن أن أنسى اسمك يا والدي؛ هو نزار أجل أراه كل يوم في كناش العائلة. علي بالعودة إلى السيد لسؤاله من جديد: إذن سأكمل ما في يدي من عمل بسرعة، لأذهب إليه وأسأله في أمر ما وأستغل الفرصة لسؤاله. نعم لقد خرج من المطبخ بعد أن ترك أحد العمال يملأ الكؤوس بالجبن. حاول عصام أن يشغل نفسه بالعمل خاصة وأن الطاهي بدأ في تحضير الوجبات والخالة أنهت التنظيف، ومرت بالمطبخ كعادتها لتساعدهم وتجلس إليهم قليلًا أجابها عن بعض الأسئلة الاعتيادية التي تطرحها باستمرار؛ تسأل عن الأسرة، وعن مشكل الاندماج فيجيب من غير أن يعمل فكره الذي كان منشغلًا بأشياء أخرى. انتبه إلى أنه لم يعط الخالة حقها وهي التي تعاملهم كأم لهم جميعًا، وقال مستدركًا:

-خالتي كيف هي صـــحتك اليوم؟ أظن أنك قد تماثلت للشفاء بعد الوعكة التي ألمت بك مؤخرًا .

تبتسم، وتجيب:

-بخير يا ولدي، كا نت نز لة برد، و قد شر بت لها بعض الأعشاب والحمد لله أحس بتحسن. وجدتها فرصة لتمدد مساحة الكلام، وأضافت:

-كلما تقدم بنا العمر ضـــعفت صـــحتنا أكثر، وبدل أن نعطيها حقها من العناية نعمل على تجاوز الأمر بســـــرعة كأن المرض عابر، وعندما كنا في فترة الشـــباب كنا نلازم الفراش لمدة طويلة، أتعرف لماذا؟ يســـأل وهو منهمك في تنقية الخضر:

-لماذا يا خالتي؟

-لأننا نجد في تلك الســـن من يهتم بنا و يخاف علينا، وبدورنا نجدها فرصة للبقاء في الفراش نأخذ الوقت الكافي للراحة، ولكن كلما كبرنا اعتمدنا على أنفســـنا أكثر، ولو بقينا ملازمين الفراش لزاد همنا ومرضـــنا أكثر؛ لأننا ســوف لا نجد من يقدم لنا ما نريد، الكل أصـبح لا يرغب

في خدمة كبار السـن، وإذا عثرت على أحد يرعى كبيرًا في السـن فهو إنسـان يعمل لوجه الله أكثر مما يعمل من أجل ذاك المريض. أفهمت لماذا لم أبق في الفراش طويلًا. عصـام سـمع كل ما جاء على لسـانها رغم انشـغال باله، وجد كل كلامها على صواب، وقال:

-أنت محقة يا خالة، لكن لا بد من وجود أناس طيبين يخدمون كبار السـن فهذه شريعتنا، وهذه أخلاقنا التي تربينا علينا.

-الله يكملك بعقلك يا عصـام، يا ريت لو كان أبنائي يفكرون كما تفكر.

-ولماذا لم تقولي: يا ليتك كنت ولدي، يقولها ويضحك.

-لأني أعرف مدى حبك لوالدتك، فكيف تريدني أن أتمنى شيئًا لا يخصني إنها أنانية أليس كذلك؟

-أنانية!؟ أنت يا خالة تعرفين كلامًا جميلًا.

-وهل أنانية كلام جميل؟ إنها أقبح صـفة يتصـف بها الإنسان. يصحح ما فهمته عنه بالخطأ، ويقول:

-أقصـــد أ نك تفهمين كلام ا لمدارس، فكلمة أ نانية لا تســتعمل في العامية، وأكيد لا تســتعمل عندكم، لقد تعلمت لهجتكم ولم أعثر عليها.

-آه يا ولدي علمتنا الحياة أشــياء كثيرة، أبنائي تعلموا في المدارس ومن الحديث معهم تعلمت الشــيء الكثير؛ فهم طول اليوم لا شــغل عندهم ولا مشــغل إلا النقاش، والأنانية طاغية على تصــــرفاتهم كما أنهم يقحمونها في كلامهم. وأيضًا في العمل، وعند أرباب العمل الذين تنقلت عندهم ليســوا جميعهم في أخلاق الســيد صــالح، إنهم لا يفكرون إلا في ملء جيوبهم حتى وإن اقتضــــى الأمر بعرق العمال، أليســت هذه أنانية؟ ألا تريد مني أن أوظف الكلمة التي أعيشــها طيلة اليوم. ولا تنس يا عصــام أني بدوري تعلمت إلى المستوى الخامس الابتدائي، وعلى أيامنا كانت هذه الشــهادة هي العقبة الوحيدة، ومن اجتازها فتحت له أبواب العمل، لكن لسوء حظي استعصــى علي اجتيازها، ولكي تعرف قدرتي على الصــبر كررت المحاولة ثلاث ســنوات لكن دون جدوى، غادرت بعدها المدرســة لأني كنت قد بلغت السادسة عشــرة من عمري، وتزوجت

ودخلت عالم المرأة من أوسع الأبواب تختم كلامها وهي تقول: أرأيت قصة خالتك عائشة. كان يبتسم في وجهها، وهي تحدثه وتساعده في نفس الآن. أجاب:

-كل واحد يا خالتي يأخذ نصيبه الذي كتبه الله له، هكذا تقول والدتي.

-نعم والدتك محقة، غير أن هناك من يأخذ نصيب الفقراء عنوة. ـ أنا أيضًا هذا رأيي، والأكثر من ذلك هناك من أخذ منهم أرضهم، ولقمة عيشهم، ووطنهم ويرمى بهم خارج الوطن من غير أن يفكر في المصير الذي ينتظر من رمى بهم.

-عصام هل جئت لأذكرك بحالتك يا ولدي؟ دع الأمر لله هو وحده من سيتكفل بعباده.

-ونعم بالله يا خالة، ولكن الجرح غائر، وأنا لم أنس يومًا وضعي كل ما حولي يذكرني بأزمتي وأزمة بلدي؛ تواجدي هنا، كلامي معك ...

-أتريدني أن لا أكلمك؟ طيب سأنسحب فورًا يا عصام.

-لا والله يا خالة، أنت على الرأس والعين، فقط لأوضح لك أني لم أنس يومًا وضعي وحالتي. في تلك الأثناء لمح السيد يمر بالجوار قام مسرعًا رآه يدخل مكتبه، استأذن ودخل نظر إليه السيد مبتسمًا.

قال عصام اسم والدي نزار.

وقتها قال السيد أجل صاحبي أيضًا هذا كان اسمه، الأمل يكبر في كونه نفس الشخص ولكن كما سبق وذكرت لك لا تعلق الكثير من الآمال يا ولدي. كان الفرح يملأ قلب عصام ولم يسمع باقي الكلام. استأذن ليعود إلى عمله.

لم أشأ أن أخبر والدتي بالأمر لم أكن أرغب أن أعطيها أملًا ضعيفًا، وجدتها جالسة في مكانها وسط إخوتي وهي تقوم بطي بعض الملابس طلبت منها أن تسمح لي بأخذ كتاب الصور الذي تحتفظ به كآخر ما تبقى لها من الأهل، ومن الماضي كله، وكأنه الصلة الوحيدة التي تربطها بحياتها الماضية كانت تحتفظ به جيدًا ولا تريد أن نتلاعب به. تقول باستمرار إنه كل ما تبقى لنا، وربما تعرفنا يومًا على وجوه الأهل من خلال الملامح التي نحملها معنا من هذه

الصور بعدما تختفي كل الملامح من الذاكرة بسبب تقادمها وعدم رؤيتنا لها. أخذتُ الكتاب منها، وجلستُ أتأمل صور والدي وأختار أي واحدة سأحمل معي، كانت تسترق النظر إليّ أحسست أني أخبئ عليها للمرة الأولى شيئًا، ولكني أعود لأقول كل ما أقوم به هو من أجل ألا أشوش عليها، وربما تركتها تتعلق بأمل له خيوط واهية، وربما سمع باقي إخوتي الخبر وانتظروا بشوق وقلق، وكبر أملهم في عودته وتكون صدمة لهم عندما يكون الأمر مجرد تشابه. لكني أقول وقد ملأني الأمل: ألم يؤكد السيد أنه كان فعلًا يحمل ا سم نزار عندما ذكرت أمامه ا سم والدي؟ أيعقل أن يكون التشابه وصل إلى حد الأسماء؟ كل شيء محتمل، كثيرون الذين يحملون ا سم نزار، وكثيرون من هم في مثل سنه، وكثيرون رمت بهم الأقدار إلى هناك، ولكن هل من الممكن أن تكون لهم نفس طباع والدي ويتحدثون مثله أيضًا؟ الأمل يملؤني وتُرسم الابتسامة على وجهي من غير أن أنتبه. والدتي لم تكن غافلة عنّي التقطت صورة البسمة التي بقدر ما أدخلت عليها السرور بقدر ما سكبت من الحزن في أعماقها، ولم تقو على الصمت أكثر، وسألت:

-ما الذي جعل وجهك ينشـرح يا عصام، أي الصور تلك التي غيرت ملامحك دفعة واحدة؟ انتبهت من سرحاني على سؤالها المفاجئ، كيف تفضحني ملامحي؟ ذسيت أنها تقرأ باسـتمرار ما يجول في أعماقنا من نظرات أعيننا وصـفحة وجوهنا، أخذت يدها بين يدي وحضـنتها بقوة قبلتها وأنا أقول لها:

-سأخبرك بالأمر يا أم عصام، لا أقوى على الكتمان بعدما عرفتِ أن هناك ما جعل وجهي ينشـرح.

-هيا يا ولدي شاركني فيما تفكر به، ولا تكتم شيئًا عني ليس لكم غيري يفرح لفرحكم ويحزن لحزنكم.

-أجل يا والدتي المسألة تتعلق برب العمل.

-ما به؟ خيرًا إن شاء الله، لا تقل أنه استغنى عنكما.

-لا، الأمر أكثر من ذلك.

-أنا لا أسـتطيع أن أخمن كل الفرضـيات والاحتمالات، لا طاقة لدي يا عصام، هات الموضوع من الآخر، وبعد ذلك عد للتفاصيل الدقيقة لو شئت.

-طيب، الموضـــوع من الآخر، إنه يرغب في رؤية صـــورة لوالدي؛ لأنه التقى بمجموعة من الســـوريين عندما كان في المهجر.

-جيد، الآن إلي بالتفاصيل يا ولدي.

-والدتي قبل بقية التفا صيل هل كان والدي يعرف صناعة جبن معين؟

-والدك والجبن ق صة ع شق تمتد إلى طفولته؛ كان لا يحلو له الجبن إلا من يد جد ته هكذا حكى لي، كا نت جد ته تحضر الجبن الشامي وتضيف إليه بعض الأعشاب المنسمة، وتقول أم نزار أي جدتكم أنتم: أن جدة والدك كا نت وقت ها تب خل عليهم بطري قة صـــن عه لكي تحتفظ بحب الأحفاد والأبناء، لأن الجبن كان لا يحلو لهم إلا من يدها، ولكن عندما أصـــبحت غير قادرة لم تحتفظ بالوصـــفة لنفسها أ صبحت تجمع حولها الجميع، وهي تنجز و صفتها السحرية لتلقنهم الطريقة.

-وهل كان والدي من ضمن من كانوا حولها؟

-والله لا أعرف بالضبط، كل ما أعرفه أن قصة هذا الجبن كانت تأخذ حيزًا من حديثهم، ويضحكون كثيرًا عندما يحكون عن الجدة التي اضطرت في سنواتها الأخيرة إلى فك الحصار عن وصفتها السحرية التي حملتها معها من قريتها النائية.

-وهل تعرفين صنعه يا والدتي؟

-نعم، ولكن ليس بنفس الإتقان، كانت أم نزار تتكلف بصنعه وتعطينا نصيبنا منه ربما لانشغالي بتربيتكم بالإضافة إلى شغل البيت الكثير لم أجد الوقت لإتقانه بالشكل الجيد، وربما للأمر علاقة بالجدات، وكان علي أن أنتظر إلى أن أصبح جدة لأتقن صناعة الجبن. تنهي كلامها وهي تبتسم. لقد أعادتها تفاصيل الأحداث إلى أيام كانت فيها تنعم براحة البال والاطمئنان.

-أتعرفين يا والدتي، هناك هاتف بداخلي يهتف بقوة ويقول لي ذاك الرجل هو والدي، وأصدقك القول منذ بدأ الحديث عنه وأنا أقارن بينه وبين والدي الذي أعرفه، في كل مرة يزداد يقيني أن الرجل يحدثني عنه.

-يا ولدي لا تترك رقعة الأمل تتسع بداخلك أكثـــر من اللازم دع الأمر للصــباح، وعندما يتطلع إلى الصــورة سيتجلى له الأمر.

-لهذا السبب لم أشأ أن أخبرك في البداية لكي أتحمل الخيبة وحدي، ولا يشاركني فيها غيري.

-لقد كبرت يا عصام في غفلة من الأيام، كبرتَ ولم أنتبه إلى ذلك، أصبحت نسخة من والدك؛ غالبًا ما كان المسكين يتحمل أشــياء كثيرة ولا يخبرني إلا بعد أن ينتهي الأمر. وأحيانًا كنت أرى صــمته وانشــغال باله أدرك بحدسي أن هناك ما يشــغله، وكان بدوره يعلم أني أراقبه فيعود إلى شــكله الطبيعي ويجعل الأمر يختلط عليّ إلى أن أعرف في مستقبل الأيام ما كان يكتمه عني.

يا أم عصام، أصبح لدي اليقين من أنه والدي، إحساسي لم يخن مرة فكيف يخونني اليوم. المسألة يا ولدي لا علاقة لها بالإحســاس، حبك لوالدك ورغبتك في العثور عليه هي الدافع وراء ما تشــعر به، دع الأمر للغد " إن غدًا لناظره قريب" كما يقول المثل.

-تـــــرى لو تحقق ذلك، وكان الأمر حقيقة هل تكون الصـدفة قد لعبت دورها في الأمر؟ أكانت صـدفة أن يمر الرجل بســيارته ذاك الصــباح من المكان الذي نقف فيه؟ وكانت صـدفة أن تكون إشـارة الضـوء حمراء؟ وأن يقف صديقي سالم ليمد له الرجل الورقة المالية؟ أكانت صدفة أن يمتنع صـــديقنا الإفريقي عن الذهاب في جولة إلى كورنيش المدينة لنأكل شيئًا هناك ونتفسح قليلًا؟ أكانت الصـدفة هي التي جعلتنا نختار أن نتغدى في أحد المطاعم القريبة من مكان وقوفنا؟ والصـدفة نفسـها جعلتنا نختار مطعم الســيد صــالح؟ والصــدفة جعلته يكون يومها متواجدًا ويمتنع عن أخذ ثمن الوجبة؟ والصــدفة جعلت النادل يرفض في بداية الأمر دخولنا المكان وهو ينظر إلى أشكالنا، وأن أضطر يومها لمقابلة السيد وأن ينتهي اللقاء بطلب العمل عنده؟ أكل هذا صــدفة يا أماه؟ ليخبرني في النهاية قصة الرجل السوري الذي التقى به في بلاد الغربة؟

-لا يا ولدي كيفما كان الأمر، وكيفما كانت النتيجة أخبرك أن لا علاقة لما يحدث بالصـدفة، كل شيء في كتاب الله سبحانه وتعالى، لم يخلق الأشياء للصدفة، لقد سخر

لنا الأ شياء والأحداث نعي شها وعندما نجد شيئًا من هذا القبيل نلصقه للصدفة، لو تأملت الأحداث من البداية ستجد أنها جميعها من تدبير إلاهي، مجموعة من الوقائع تداخلت مع بعضها لتصل الأمور إلى ما وصلت إليه. اختار عصام بمساعدة والدته صورتين ليأخذهما صباحًا إلى السيد، مراعيًا في اختيارها تاريخ الصور ووضوح الملامح.

نام عصام ليلته وهو يعيد الأحداث من البداية؛ يكبر الأمل مرة فينشرح ويستعجل مجيء الصباح، ويحاول النوم كي يمضي الوقت بسرعة.

ويخبو فجأة الأ مل عند ما يقول ربما كا نت رغبته كما زعمت والدته في عثوره على والده وراء هذه الثقة. ينكمش وقتها في مكانه ويجمع رجليه إلى صدره كمن يحتمي من الخوف من أفكاره، ويغمض ويفتح عيني ه تحت الغ طاء كمن يرفض ا لنوم ولا يريد لهذا الصبح أن يأتي. والدته لم تكن أحسن حالًا منه، بعدما اطمأنت إلى نوم أبنائها قامت متسللة من مكانها وجلست للصلاة كعادتها، لكن هذه الليلة كانت ولا شك تصارع الأفكار

التي تعمل عمل الأمواج بين مد وجزر في رأسها مرة يكبر الأمل ومرة يتقلص فلجأت للصلاة ليطمئن بالها بالابتهال لله عز وجل كما تفعل كل ليلة أحست فيها بضيق الحال. هكذا هي صبورة كتومة، لم تشتك مرة من الجروح الغائرة التي تسكن أعماقها تلتزم الصمت لكنها تكثر من الدعاء، وتستمر في الصلاة لوقت متأخر. ليس من السهل على الإنسان أن يرى كل شيء ينهار من حوله حتى الأحلام التي قضى عمرًا في تشييدها تنهار وتخلف وراءها ضبابًا كأنها الظلام في سواده. سألت مرة والدتي:

كيف عرفت والدي أول مرة؟

أخبرتني أن والدها كان صديقًا لوالد أبي في التجارة وكان يومها نزار يتابع دراسته الجامعية في مدينة أخرى، وذات يوم جاؤوا لزيارتهم وكان نزار معهم، ولم تمض إلا أيام حتى أخبرتها والدتها بالأمر.

أضفت سؤالًا آخر:

-هل وافقت عليه بسهولة؟

أجابت:

-طبعًا كان شـــهمًا ومثقفًا ومن أسرة عريقة، وجدتك شكرت فيه كثيرًا يومها.

كانـت تحكي عن والدي ومن خلال كلامهـا تســتعرض مجموعة من الأحداث والتفاصيل الدقيقة حتى الألوان التي كانت ترتديها يومها، وأنواع المأكولات التي حضـــــرتها والدتها.

****

لست أدري كيف تسلل النوم إلى جفوني إلى أن سمعت والدتي تنادي بصوت خافت:

-عصام، هيا يا ولدي حان وقت الذهاب إلى العمل. قمت مسرعًا من مكاني، تناولت فطورًا خفيفًا وحملت الصور معي ونظرات والدتي تتبعني أينما تحركت، قلت لها لأطمئنها: سأحتفظ بالصور جيدًا، وسأعود بخبر سار يثلج صدرك يا أم عصام، ويدخل الفرحة علينا جميعًا. ابتسمت وهي تردد:

-إن شاء الله تعالى. دخلت إلى المطعم مسرعًا لكني لم أكن الأسبق كان السيد صالح يحدث الخالة عائشة في أمر صنبور الماء الذي تم إصلاحه قبل أيام وعادت قطرات الماء للنزول منه دون توقف، بينما بعض العمال يرتدون وزرة العمل. التحق بالعمال بعد أن سلم عليهم لم يكن يريد أن يفتح موضوع الصور قبل أن يعمل ما عليه عمله في هذا الصباح، انتبه وجد سالمًا يدخل من الباب لقد وصل للتو ابتسم في وجهه، وعاد لأخذ وزرته كان وقتها السيد قد أنهى حديثه مع الخالة عائشة التفت إلى عصام، وقال:

-اتبعني إلى المكتب يا عصام.

استجاب عصام لنداء السيد، ومشى في أثره وما كاد يدخل حتى كان إلى جواره.

قال السيد:

-أراك أكثر نشـــاطًا أظنك قضـــيت ليلة مريحة إلى جانب إخوتك.

-الحمد لله يا سيدي.

-جيد، وماذا عن الصور؟ لا تقل أنك نسيت؟

-كيف أنســى ؟ تمنيت لو أحضرتها لك ليلًا لأتمكن من النوم بعدها. مد يده وأخرج الصـــور. أخذها الســـيد بين يديه، بدأ يتطلع إليها وعصام يتطلع إلى ملامحه يحاول أن يعرف منها شـــيئًا لكن الســـيد ظل يتطلع لفترة دون أن يتكلم أو يبدو عليه شيء. ملامحه لا تشي بأي شيء، احتار عصـــام في الأمر، ولكن كان يعلم أن الأمر كله د قائق وتظهر نتيجة هذا التدقيق. نظر الســـيد إلى عصـــام جيدًا كمن يتفحص تقاسيم وجهه، وقال:

-لســـت أدري ماذا أقول لك؟ قبل أن ينهي جملته أحس بعصام يكاد يهوي أرضًا فعقب قائلًا :

-أقصـــد ماذا أقول عن غبائي كيف لم أميز من أول نظرة الشبه بينك وبين السيد نزار.

قال عصام بلهفة:

-هل كان هو والدي؟ أجـب بالله عليك.

تقدم الســيد من عصــام وحضــنه بين ذراعيه وربت على ظهره وهو يقول:

-أجل هو يا عصام، والله هو.

أحس عصام بأنه ينهار ويكاد يسقط أرضًا. لكن السيد أمسك به بين ذراعيه بقوة، وقال:

-تماســك يا عصــام والدك بخير، وماذا كنت فاعلًا لو لم يكن هو نفس الشــخص؟ جلس عصــام على كرسي بمساعدة السيد، وهو يردد: الحمد لله رافعًا كفيه للسماء واذ سابت دمعتان من عينيه ا ستجابة لما يعتمل في صدره من فرح ممزوج بالخوف.

قال السيد بعد ذلك:

-امســـح دموعك يا ولدي، وإذا شـــئت العودة إلى البيت لإخبار والدتك فلك ذلك ويمكنك أن تقضـــي اليوم إلى جانبها في البيت.

قال عصام متلعثمًا:

-لســـت أدري من أين أبدأ الكلام؟ هل أشـــكرك؟ أم ماذا أفعل؟

-لا تفعل شـــيئًا الآن، كل ما عليك فعله أن تعود للبيت مسرعًا لتدخل الفرحة على من في البيت، وبعد ذلك نفكر في المرحلة الموالية.

-عن أية مرحلة تتحدث يا سيدي؟

-أقصد معرفة الوجهة التي سلكها والدك بعدما عدت أنا إلى المغرب لقد انقطع الاتصـــال بيننا، ولم أعد أعرف عن الأصـــدقاء شـــيئًا لكني ســـأجري اتصـــالًا مع صـــديق لي ســـيبحث عن مكان عمله الجديد والأمر لن يأخذ الكثير من الوقت، نحن في زمن العولمة يا عصام لمعرفـــة أي شيء يكفي أن تدخل هذا العالم الأزرق الغريب.

-نعم يا سيدي أنت محق، حدثني قليلًا عن والدي قبل أن أعود إلى والدتي لو سمحت؟

ـ ولماذا لا تقول كثيرًا فأنا مدين له بأشياء كثيرة. في الغربة اعتبرت والدك يد القدر التي امتدت لتنتشلني من أشياء ما كنت لأخرج منها إلا بمساعدة إنسان في مثل أخلاقه، وله سعة صدره وحكمته. كان لنا أخًا كبيرًا، وأحيانًا أبًا لم يكن يجرح مشاعر أحد كان يقدم النصيحة دون أن يقصد فردًا بعينه كان غالبًا ما يبدأ حديثه قائلاً: لا أحد منّا جاء إلى هذا المكان بإرادته، هذا شيء مفروغ منه قد يأتي أحد لبلاد المهجر بإرادته لطلب العلم أو للسياحة، وإن كنت أرى غير هذا لو كا نت بلاد نا قد وفرت لنا المعاهد والجامعات من كافة التخصصات، ولو كانت لها قيمة في الميزان الذي تقاس به قيمة العلم لما ا ضطر الأبناء للسفر لأخذ العلم لجعلت المختصين من أنحاء العالم يأتون إلينا لتدريس أبنائنا؛ ولأن الفرد إذا عاش في عالم مختلف لما اعتاد عليه في أرضه لمدة ست أو سبع سنوات يصعب عليه العودة من جديد إلى واقعه الذي غادره ذات يوم نعم دائمًا تمثل أمامه صورة الفساد، صورة العالم

الثالث بكل بشاعتها؛ العالم الذي غادره ليحسن وضعه المعرفي كيف يقوى على العودة إليه بعد ما تغيرت نظرته للأمور بعدما مشى في أزقة نظيفة وشوارع تعرف الكثير من النظام، يغالط أحيانًا البعض نفسه، ويقول: سأشتغل لبعض الوقت وأعود بعدها إلى وطني، هذا إذا كان هناك ما يشده لذاك الوطن؛ كالأهل أو الحنين إلى الأرض وإلى اللغة والهوية... لكن التيار يجرفه سنة بعد أخرى فينتظر وهو لا يعي أن الزمن يجري به بسرعة، ويستحيل أن يتوقف ويعطيه مهلة ليجمع شتات أفكاره، ويقرر بحزم ما عليه فعله لأن الحياة في بلاد الغرب كمن يعيش في دوامة يجري وراء المعرفة من أجل أن يحسن دخله بالدرجة الأولى، قد يحاول مغالطة نفسه وهو يعلم علم اليقين أنه غير صادق، ويقول أريد أن أعمق معرفتي أكثر وأنهل من العلوم أكثر، كل هذا مجرد وهم اخترعه ليزيّن مقامه في أرض الغربة، ويجد مبررًا أو شماعة يعلق عليها سبب بقائه. كان الرجل يتحدث وعصام يستمع إليه وهو ينظر بعيدًا لا بد أنه كان يرسم في ذاكرته ملامح والده حين يتحدث، صحيح أن الصورة بدأت تبهت قليلًا في ذاكرته لبعد المدة التي رآه فيها آخر مرة، لكن هناك صورًا لن تزول ولن تتشوه مهما

تقادم العمر ومهما بعدت المسافة. أضاف السيد قائلًا: كان يقول كلامًا جميلًا؛ كلامًا موزونًا، كنا لا نحسن فيه سوى الإصغاء، وكان الليل بصحبته يمضي سريعًا يقلص وجع الغربة لأن غربته كانت الأكبر، وكانت شكواه لا تخرج صريحة ولكن بين الحين والآخر نلمسها من كلماته فنصغي إليه في صمت، كان يقول: في الغربة نتساوى نعيش الغربة عن الوطن والأهل بغض النظر عن نوعها لكنه كان يقصد التخفيف عنا وعن حالته وربما كي لا يظهر شكواه وضعفه، لم يكن أكبرنا سنًا، لكنه كان أفقهنا وأكثرنا معرفة وخبرة وتبصرًا بالأمور. كان يصمت قليلًا، ويسود بعدها المكان سكون عميق عمق جراحه يبتسم في رقة، وكأنه يطوي صفحة الأحزان ليمدنا بالطاقة، أجل كان يمدنا بالكثير منها؛ كان كمن ينقب في قاموسه عن كلمات تشحن همتنا تقوينا تمدنا بالأمل، يدفعنا للعمل والإخلاص فيه، يقول بحكمة المتبصر:

-لا بد من الإخلاص في العمل أينما كنتم، لو كنا أخلصنا لأوطاننا وعملنا كل طاقتنا لما أصبحنا عالة على أرض أخرى. أجل لا بد من الإخلاص، وأن نربي أبناءنا على ذلك،

وننشر الوعي بالأمانة، عندما نبذل أكثر أكيد سيعم الخير ويصلح الوضع كان ينصحنا بالابتعاد عن اليأس، كان كريم الخلق يجد كلامه طريقًا يتسرب منه إلى النفس، ويحتل مساحة بداخلها يزرع فيها من القيم ما يشاء، ومع الأيام حصدنا ما زرعه فينا، ولازلنا نحصد ونحاول بدورنا زرع ما نقوى على زرعه وإن كنا نفتقد إلى الوسيلة التي كان يتمتع بها والتي كانت تساعده على ذلك؛ من معلومات واستشهادات يوظفها كلما دعت الضرورة إليها كما كانت لغته السلسلة تفي بالغرض. نحن وإن كان البعض منا قد تعلم في المدارس لكن التجربة تختلف، والظروف التي تنشئ الفرد تختلف بدورها كما أن ثقافات البلدان تختلف وإن كنا نتقاطع في أشياء كثيرة، فالاختلاف قائم باستمرار، وهذا هو سر تفوق بلد على الآخر وتقدمه فكريًا واقتصاديًا واجتماعيًا. وكلما علم بما يعتمل في عقول البعض كان يقول:

-الخوف إحساس طبيعي، ولكن علينا أن نعرف الوسيلة للتغلب عليه لكل شيء حل في هذه الدنيا؛ بالأمل والكثير من الشجاعة والإيمان القوي بالقضاء والقدر،

أنا لا أقول أن نرمي بأنفسنا إلى التهلكة لكي نتصدى للخوف ونقضي عليه، ولكن بالحكمة والتفكير الجيد وترك الخوف جانبًا. لأنه يشد من إرادتنا يمنعنا من عمل أي شيء.

توقف السيد صالح فجأة عن الكلام، وقال لعصام:

-هيا يا ولدي لقد تكلمنا كثيرًا لا بد أن والدتك تنتظر على أحر من الجمر سنعود إلى الحديث عن والدك لاحقًا، وستجمعك به الأيام ليحدثك عما قدمه لنا في بلاد الغربة، وعن كل ما يحلو لك سماعه.

طلب الإذن من السيد ليخبر سالمًا والخالة عائشة وباقي الزملاء عن معرفته بمكان والده كان يود لو يتمكن من إخبار مامادو أيضًا لكن هذا الأخير كان ضمن المجموعة التي تنتظر دخول مدينة مليلية بعدما تمكن من دفع ما يلزمه لزعيمهم بعدها انطلق عصام كالسهم لا يلوي على شيء كل ما كان يشغل بال باله هو المسافة التي تفصله عن البيت.

*****

السيرة الذاتية للكاتبة

أمنة برواضي : روائية قاصة و شاعرة.

الأعمال المنشورة:

** الروايات

ـ " أبواب موصدة" رواية : ٢٠١١

ـ " أحلام مجهضة " رواية : ٢٠١٤ و طبعت للمرة الثانية ٢٠١٥

ـ " شظايا حارقة " رواية:٢٠١٤ـ

ـ " على ذمة التحقيق " رواية: ٢٠١٦ الرواية التي فازت بالجائزة الأولى في الملتقى الثاني للرواية العربية بوجدة.الطبعة الثانية ٢٠١٧ والطبعة الثالثة بالجزائر ٢٠١٨

ـ "منعرجات ضيقة" رواية ٢٠١٩

** المجموعات القصصية:

ـ " قطرات الندى": قصص قصيرة جدًا ٢٠١٢

ـ " تجاعيد الزمن ": قصص قصيرة جدًا ٢٠١٣

ـ " صدى الكلمات الجريحة: " قصص قصيرة جدًا ٢٠١٥

ـ "سوانح من كلمات": قصص قصيرة جدًا ٢٠١٩

ـ " متاهة الأيام " قصص قصيرة ٢٠١٤ .

ـ " جسور " قصص قصيرة جدًا عمل جماعي ٢٠١٥

** الشعر:

ـ" صليل الأغلال" ديوان شعري ٢٠١٥.

** قصص للطفل

"البطل عبد الكريم الخطابي ومعركة أنوال " قصة للطفل ٢٠١٥ فازت بالرتبة الثانية وطنيًا

ـ " شغب ياسين" قصة للطفل بدعم من وزارة الثقافة ٢٠١٩

ـ "جزاء الإخلاص" قصة للطفل: بدعم من وزارة الثقافة ٢٠١٩

ـ "حكايتي مع العَلَم" رواية للطفل بدعم من وزارة الثقافة ٢٠١٩

**مسرحيات للطفل

ـ " مونودراما احتفالية " مسرحية للطفل بدعم من وزارة الثقافة ٢٠١٧

ـ " أصدقاء البيئة" مسرحية للطفل بدعم من وزارة الثقافة تحت الطبع

*****

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر